أبو الطيب المتنبي

مقالات بقلم: عباس محمود العقاد

كتاب المجلة العربية
225

أبو الطيب المتنبي

مقالات بقلم:
عباس محمود العقاد

كتاب العربية 225

المجلة العربية

رئيس التحرير

د. عبدالله بن نعمان الحاج

الرياض – طريق صلاح الدين الأيوبي (الستين) – شارع المنفلوطي

هاتف: 4778990 - 4779792 فاكس: 4766464

ص.ب 5973 الرياض 11432

المملكة العربية السعودية

www.arabicmagazine.com

info@arabicmagazine.com

بسم الله الرحمن الرحيم

ح
المجلة العربية، 1436هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العقاد، عباس محمود
أبو الطيب المتنبي./بقلم عباس محمود العقاد.- الرياض، 1436هـ
122ص؛ 21×14سم- (كتاب المجلة العربية؛ 225)
ردمك: 978-603-8168-21-9
1 - المتنبي، أحمد بن الحسين، ت 354هـ 2 - الشعراء العرب - العصر العباسي الثاني
3 - الشعر العربي -نقد- العصر العباسي الثاني أ. العنوان ب. السلسلة
ديوي 1, 928 1436/6151

رقم الإيداع: 1436/6151
ردمك: 978-603-8168-21-9

المحتويات

تنويه 7
أبو الطيب المتنبي 9
المختار من شعر أبي الطيب المتنبي 21
هل تنبأ المتنبئ 49
ولع المتنبي بالتصغير 57
شهرة المتنبي 67
شهرة المتنبي – حدّ الشاعر العظيم 77
فلسفة المتنبي 83
فلسفة المتنبي وفلسفة نيتشه 99
فلسفة المتنبي – بين نيتشه وداروِن 111
فن المتنبي 123
مع المتنبي 131
شخصية المتنبي في شعره 145
في ذكرى المتنبي (١) 153
في ذكرى المتنبي (٢) 157

تنويه

مرت الذكرى الخمسون لوفاة العقاد، وقد نشرت المجلة في تلك المناسبة عـدداً خاصـاً عن العقـاد، وكان ذلك في العـدد 450 لشهر رجـب 1435هـ الموافـق مايـو 2014م، كمـا نشـرت المجلـة مع العـدد كتاب العقـاد (اللغة الشاعـرة). وكانت المجلة قد نشرت كتاباً آخر للعقاد وهو (عبقرية محمد) في كتـاب المجلة العربية للعدد 434 لشهر ربيع الأول 1434هـ الموافق فبراير 2013. كما أعدنا نشـر كتابه (فرنسيس بيكون- مجرب العلم والحياة) في كتاب المجلة العربية رقم (136).

ومـن خـلال متابعتنـا لما كتبـه العقـاد، وجدنا أن مـا كتبـه العقاد عن (المتنبـي) يؤلف كتاباً منفصلاً. وهي مقالات توزعت أغلبها بين كتابين هما (مطالعات في الكتب والحياة)، وهي مقالات كان قد نشرها في مجلة البلاغ عام 1923، والآخر (ساعات بين الكتب). وهناك المقال الذي نشر في العدد الأول من (تراث الإنسانية) 1963م، ومقال آخر في مجلة الهلال (شخصية المتنبـي في شعـره) سنـة 1935. ومقالان في مجلـة روز اليوسف (في ذكرى المتنبي 1،2) (15، 22 أغسطس 1935).

لا نزعـم بأننا عثرنا على كل مـا كتبه العقاد عن المتنبي، ولكن نقول بأن هذه المقالات هي ما انتهى إليه جهدنا. ونحن نرحب بكل من يدلنا على مقال لم ندرجه هنا.

مع تحيات المجلة العربية

د.عبدالله الحاج

أبو الطيب المتنبي

عَلَم الشعر الأشهر في اللغة العربية، لم يبلغ أحد من شعرائها مبلغه من الشهرة في حياته ولا بعد مماته.

شاع ديوانه –وهو بقيد الحياة– بين أرجاء الدولة الإسلامية من أقصى المشـرق في فارس إلى أقصى المغرب في الأندلس، واحتفل أئمة اللغة بدرسه وتفسـيره وتصحيـح الأقـوال في نقده، فلـم يهمله مشتغل بالشعـر من كبار النحـاة واللغويين، منذ القرن الرابع إلى هـذا العصر الأخير، وأقبل الناس علـى حفظ شعره وروايته إقبالهم الـذي لا سلطان عليه للولاة ولا للمحكِّمين في الأدب من العلماء والنقاد. فكان (ابن العميد) وهو أديب ذو ولاية، ينقم عليـه هذه الشهرة، ويشكو ضعف الحيلة في إخمال ذكره، والغض من قدره، قال بعض صحبه:

(دخلـت عليه يومـاً فوجدته واجمـاً، وكانت قد ماتت أختـه عن قريب، فظننتـه واجِـداً لأجلها، فقلت: لا يُحـزن الله الوزير، فما الخـبر؟ قال: إنه ليغيظني أمر هذا (المتنبي) واجتهادي في أن أخمل ذكره، وقد ورد عليَّ نيف وستون كتاباً في التعزية ما منها إلا وقد صدِّر بقوله:

طَـوَى الجَـزيـرَةَ حتى جـاءَني نبأ
فَـزِعْـتُ فيـه بـآمـالي إلى الـكَـذِبِ
حتى إذا لم يَـدَعْ لي صِـدْقُـهُ أمَـلاً
شَرِقْتُ بالدّمعِ حتى كادَ يشرَقُ بي

فكيـف السبيل إلى إخمال ذكـره؟ قلت: القدر لا يغالب، والرجل ذو حظ من إشاعة الذكر، واشهار الاسم، فالأولى ألا تشغل فكرك بهذا الأمر).

وليس الأمر للحظ، كما قال صاحب (ابن العميد) فإن أسبابه غير خفية في عصر الرجل وفي كفايته لتلك الشهرة. ولقد كان عصره عصر التمام للثقافة العباسية، وعصر التطلع من المتأخرين إلى مجاراة الأولين، وعصر الغيرة العربية بعد غلبة الأعاجم على دولتها في أواسط الدولة العباسية، وكان تصدُّع الدولة، وتعدد الأمراء على بلادها سبباً من أسباب التنافس بين أولئك الأمراء، على ارتفاع الذكر واستحقاق المحمدة ونباهة الشأن. فكان سعي الأمراء إلى اكتساب مديح الشاعر المشهور أشدَّ من سعي الشعراء إلى اكتساب جوائز الممدوحين، وارتضى هؤلاء الأمراء من هذا الشاعر ما لم يكن يرتضيه ممدوح من مادح، في زمانه ولا قبل زمانه. وقيل إن الأمير (طاهر بن الحسين) أقامه في مكانه، وجلس بين يديه ليستمع إلى مديحه فيه، وكان أكبر ما يخشاه الأمير منهم أن يتخطاه الشاعر فلا يقصد إليه، ولا يمدحه كما مدح أنداده، فقصدوه بالدعوة قبل أن يقصدهم بالمديح.

ولكن سبباً واحداً كان له نصيب في شهرة أبي الطيب، لم يكن لسبب آخر، هو الطبع العربي الذي أعانه على تمثيل أبناء قومه كما نقول في مصطلح العصر الحديث، فإنه عَبَّر عن ذلك الطبع العربي أصدق التعبير في زمن (التنبه والحساسية القومية) وجاء تعبيره عن عالمه، حيث يشيع التعبير وتتجاوب أصداؤه في النفوس والخواطر قبل الألسنة والأقلام، لأنه كان يعبِّر عن العبقرية العربية في معترك الحياة العملية، وهو جانب من حياة الأمة أقرب إلى الحس، وأدعى إلى السيرورة بين أبنائها من كل جانب آخر تنطوي عليه عبقريتها، فقد كان البحتري والمعري عربيين يمثلان تلك العبقرية أحسن التمثيل، هذا في جانب الذوق الفني وهذا في جانب الفكر والتأمل، ولكنهما جانبان لا يحيطان بحياة أبناء الأمة كما يحيط بها جانب

الحكمــة العمليــة أو جانب الواقع الــذي يشترك فيه الشاعــر بحسه وخلقه وفكــره، ويتلاقى فيه مــع كل مشارك له من أبناء قومــه، في سليقته ومنطق عقله ولسانه.

وقــد أعينــت السليقــة في (المتنبي) بمــدد وافٍ من التعلــم والصناعة، فكان أوسع الشعراء في زمانه معرفة باللغة وآدابها، وبالثقافة الأجنبية التي انتقلت إليها، وروي عن أبي علي الفارسي علّامة اللغة في زمانه أنه سأله: كم لنــا من الجموع على وزن فِعلى؟ فقال (المتنبي) على الأثر: حِجلى وظِربَى.. قــال أبو علي: فطالعت كتب اللغة ثــلاث ليال علّي أجد لهذين الجمعين ثالثاً فلم أجد... وقيل إنه كان يحفظ ديواني (أبي تمام) و(البحتري) وإنه جمع شعــر ابن الرومي كله، وجمع غيره من شعــر النوابغ المهملين المتقدمين على زمنه، وأضاف إلى علمه باللغة علماً بالفلسفة وأقوال المتكلمين والمعتزلة كما يظهر من معانيهــا المتفرقة في قصائده الكثيرة. وروى (البغدادي) صاحب (خزانــة الأدب) أنــه كان في صغــره يتردد علــى رجل يكنى (أبــا الفضل) بالكوفة (من المتفلسفة هَوّسه وأضله..).

وبُولِــغ في قدرته على الحفظ، كما بُولِغ في قدرة (المعري) و(أبي تمام)، فــروى (أبو الحســن العلوي) عن ورَّاق كان يجلس إليــه (المتنبي) قال: (ما رأيت أحفظ من هذا الفتى (ابن عبدان). قلت له: وكيف؟ فقال: كان اليوم عنــدي، وقــد أحضر رجل كتاباً مــن كتب (الأصمعي) في نحــو ثلاثين ورقة ليبيعــه، قال: فأخذ ينظــر فيه طويلاً. فقال الرجل: يا هــذا أريد بيعه، وقد قطعتني عن ذلك، فإن كنت تريد حفظه في هذه المدة فبعيد! فقال: وإن كنت حفظتــه فمالي عليك؟ قال: أهب لك الكتاب. قــال: فأخذت الدفتر من يده فأقبل يتلوه عليَّ إلى آخره، ثم استلبه فجعله في كمه، فعلق به صاحبه وطالبه

بالثمـن، فقال: ما إلى ذلك سبيـل، قد وهبته لي... فقلنا: أنت شرطت على نفسك هذا للغلام، فتركه..).

فـإذا سمحنا للمبالغة بحصتهـا المعهودة في أمثال هـذه الروايات، فما يبقى مـن صفة القدرة النادرة على الحفـظ كافٍ للتعريف بسعة محصوله مـن اللغة والعلـم، في حياة لم يفرغ فيها من المطالعـة، ولم يفارق فيها كتبه ودفاتره في حلّه وترحاله.

فالشعـر في ديوان هذا العبقـري المطبوع هو شعر السليقـة يعينه التعلم في ذهـن متوقـد يتفتّح لـكل ما حوله من دنيـا الناس أو دنيـا الطبيعة، وقد يتناول الشعراء غيره بعض صور الطبيعة أو صور الحياة على السماع تهويلاً بالأوصـاف المتواترة التي لا تـدل على شعور صحيح بتلـك الصور، ولا على علـم دقيق بما لهـا من خصائصـ التكويـن وملامح الطبـاع، وكذلك كان يجـري ذكر الأسد والنسـر في أقوال الشعراء وسائـر المتحدثين عنها كأنها (قـوى هائلة) لا حدود لمبالغات التهويـل فيها، ولكن هذه الصور وما عداها مـن ظواهـر الحياة لم ترد قط في (ديوان المتنبـي) إلا علمنا من تصويرها أنهـا مستمدة من وحـي المشاهدة وشعـور السليقة الواعيـة، يصفها كأنها معروضـة في درس من دروسـ التاريخ الطبيعي التي تعرفنـا بالأحياء، كما تتميـز بفصائلها وعاداتها وخصائص تكوينهـا. فالأسد من حيوانات الليل التي تفترس لنفسها، ولا تأكل من فرائس غيرها:

وَمَـن تكُن الأُسْـدُ الضَّواري جُـدودَه
يكُنْ لَيلُهُ صُبْحاً وَمَطعمُهُ غصْبَا

والنسـر هو النسر، بغير التباس بينه وبـين العُقاب، كما يلتبس كثيراً في أقوال الشعراء والمتحدثين:

تـفَـدّي أتَمُّ الـطّـيـر عُـمْـراً سـلاحَـهُ
نُـسُـورُ الـفَـلا أحـداثُـهـا وَالـقَـشـاعِـمُ
وَمـا ضَـرَّهـا خَـلْـقٌ بـغَـيـر مَـخـالـب
وَقَـــدْ خُـلـقَـتْ أسـيـافُـهُ وَالـقَـوائـمُ

وهـذه مراقبـة العين البصـيرة والطبيعـة الواعية لهـذا الطائر بجملة عاداتـه في صيده وطعامه وفي حداثته وهرمـه، وفي اجتماعه وافتراقه حول الجثث التي تتخلف له، ولا يعمل في إزهاقها بمخلبه وطاقة بدنه.

ولقـد كان الشاعر صادقاً لفطرته كصدقه لمشاهد الحياة والطبيعة من حولـه. فشعره في جملته هو شعر الجد والطمـوح والإقدام، ورياضة النفس على سمت طلابها العظائم، وعشاق المجد والرياسة، وقد يعرف المزح ولكنه مزح الساخر المترفع كقوله في صباه متهكماً على صائدي الجُرذ (المستغير):

وَأيُّــكُـمَــا كـــانَ مـــنْ خَـلْـفـه
فَـــإنّ بـــه عَـضَّـــةً في الـــذَّنَـــبْ

أو كقوله للشاعر الذي مدح الأمير بقصيدة من نظمه في منامه:

قـد سَـمـعْـنَـا مـا قُـلْـتَ في الأحْــلام
وَأنَـــلْــنَـــاكَ بَـــــدْرَةً في الْمَــنَـــام

أو كقوله في (ابن كروَّس)

ويـا بـنَ كَـرَوّس يـا نصْـفَ أعمـى
وإن تَـفـخَـرْ فـيـا نـصْـفَ الـبَـصـير

وربمـا عـرف الغزل ولكنه غزل المنعم بحبه فـيراه نعم الجزاء لمن ينعم عليه بحسنه:

وصلينا نَصلك في هذه الدنـ
يا فإنَّ المُقامَ فيها قليلُ

أما الخمر والقصف والمجون فما له وما لها؟ كما قال:

يَشغلُني عنها وعن غيرها
توطينيَ النفسَ ليوم الطِّعان

ولا يعسر على الناقد أن يستخرج من ديوانه مذهباً كاملاً في (فلسفة القوة) كمذهب (نيتشه) في أصوله وتفصيلاته، لم يجمعه مذهباً منسقاً مترابط الأجزاء كمذاهب فلاسفة القوة من بعده، ولكن الشاعر المطبوع على الإيمان بعقيدة القوة هو أصلح المراجع لمن يطلب الشواهد من أولئك الفلاسفة المشتغلين بالتنسيق والتفسير.

ومن صدق الطبع فيه أن خليقة الكبرياء عنده لم تسلم من شطط العبقرية في جماحها واندفاعها إلى الطرفين، فقد رويت عنه أخبار تنمُّ على فرط البخل، وأخرى تنمُّ على فرط التهوُّر، وقلة الاكتراث لخصومه في مواقف الخطر على الحياة، فإذا سمحنا لهذه الأخبار بحصتها من مبالغة الحساد، وافتراء الأعداء فالقليل -أو الكثير- الذي يبقى منها غير مستغرب في أطوار العباقرة من كل طراز وفي كل قبيل.

وعيوب شعره التي أحصيت عليه هي أيضاً من عيوب الطبع الذي يغلب في النفس على صقل الصناعة وتقليم المنجل. فإن شعر الصنعة هو أسلم الأشعار من آفات النقص في الصقل والتهذيب، ولن يكون الشعر المطبوع إلا كما قال ابن الرومي معتذراً من عيوب شعره:

قـولا لمـن عـاب شـعرَ مـادحـه
أمـا تـرى كيف رُكِّـبَ الشـجرُ
رُكِّـب فيـه اللـحاء والخشـب الـ
يـابس والشـوك دونـه الثمر
وكـان أولى بـأن يـهـذّب ما
يـخلق ربُّ الأربـاب لا البشَـرُ

وقد عيبت عليه المبالغة والتهويل في كثير من مديحه وفخره، وعيب عليه الولع بالتصغير في بعض هجوه، ومنه:

أذُمّ إلى هـذا الـزّمـان أُهَـيْلَـهُ
فأعْلَمُهُمْ فَـدْمٌ وأحـزَمُـهمْ وَغْـدُ

ومنه:

أفي كلّ يـوْم تحتَ ضِبْني شُوَيْعرٌ
ضَعيفٌ يُقاويني قَصيرٌ يُطاوِلُ

ومنه:

أخـذت بمـدحـه فـرأيـت لـهوا
مـقـالي لـلأحـيـمـقِ يـا لئيم

ومنه:

نُوَيـبـيَّـةٌ لم تـدرِ أن بُنَيَّـها الـ
نُوَيبيَّ دون الناس يُعبَدُ في مصرا

وعيب عليه التعقيد والتكرار، كما في قوله:

جَفَخَت وهم لا يجْفَخون بها بهم
شِيَمٌ على الحسب الأغر دلائل

وعيب عليه الإكثار من اسم الإشارة (ذا) في عشرات من الأبيات. كقوله في الأبيات التالية من قصيدة واحدة:

أَذا الغُصنُ أَم ذا الدعص أَم أَنت فتنَةٌ
وَذَيّا الَّذي قَبَّلتُهُ الـبَرَقُ أَم ثَغرُ
لِساني وعَيْني والفُؤادُ وهِمَّتي
أُوَدُّ اللّواتي ذا اسمُها منكَ والشَّطرُ
وما أنا وَحدي قلتُ ذا الشّعرَ كُلَّهُ
ولكنْ لشعري فيكَ من نَفسه شعرُ
وما ذا الذي فيهِ منَ الحُسنِ رَوْنَقاً
ولكنْ بَدا في وجهِهِ نحوَك البِشْرُ

وعيبت عليه مخالفة السماع في بعض الجموع كجمع دار على أَدؤرَهُ. في قوله:

أُحِبُّهُ وَالهَوى وَأَدؤرَهُ
وَكُلُّ حُبٍّ صَبابَةٌ وَوَلَه

وجمع كوب على أكوب في قوله:

لأحبتي أن يملأوا
بالصَّافيات الأكوُبا

وجمع أرض على أروضٍ في قوله:

أروضُ النَّاسَ من تربٍ وخوفٍ
وأرضُ أبي شجاعٍ منْ أمانِ

ويبدو لنا أن طبيعة الكبرياء في (أبي الطيب) كان لها شأنها في أسلوب تكبيره وتصغيره كمن ينظر إلى الدنيا من طرفٍ مجهر يبالغ أحدهما مكبراً، ويبالغ الآخر مصغراً. كلما مضى في المبالغة مع الفخر من ناحية والاستخفاف من ناحية أخرى. وربما كان لهذه الكبرياء شأنها كذلك مع اسم الإشارة المقتضب كأنه إشارة بظهر اليد من الترفع في أنفة واستعلاء،.. أما استخدام الغريب ومخالفة السماع، ففي سعة علم الرجل بغرائب اللغة وقواعد القياس تفسير كاف لإساغة أذنه ما لا تسيغه الآذان التي لم تتعود سماع تلك الغرائب. وعلمه بالقياس خليق أن يجرئه على مخالفة السماع استناداً إلى القاعدة في بعض الأوزان. وما عدا ذلك من عثرات الطبع فشأنه هنا كشأن القشر والشوك والخشب في بواسق الأشجار، يكفر عنها الثمر الشهي والظل الوارف والشأوُ الرفيع.

ويظهر أن النظر من الطرفين المتقابلين كان قسمة أبي الطيب من أهل زمانه كما كان قسمتهم منه، بل قسمة جميع الأشياء من نظراته إليها في حالتي غضبه ورضاه، فقد تنازع الناس أمره حتى تباعدت شقة الخلاف بين المعجبين به والمنكرين عليه، فمن أعجب به رفعه إلى الذروة التي لا ذروة فوقها، ومن أنكر عليه جرّده من كل فضل، ورجع بكل مزية من مزاياه التي لا تنكر إلى الشعراء أو الحكماء من قبله، ولجَّ هؤلاء المنكرون في تصغير نسبه كما لجوا في تصغير أدبه، فدعوه (ابن السَّقَّاء) وقال قائلهم:

أيُّ فضلٍ لشاعرٍ يطلبُ الفضـ
ـلَ من الناسِ بُكرةً وعشيًّا

عاش حيناً يبيعُ في الكوفة الما
ءَ وحينا يبيع ماء المُحيَّا

والرجل لم يفخر قط بنسبه، بل ردد غير مرة كلاماً صريحا في معنى قوله:

لا بقومي شَرُفتُ بل شرُفوا بي
وبنفسي فَخَرتُ لا بجُدودي

ولكن غلوَّ حاسديه في تصغير نسبه ظاهر من تسمية أبيه بـ(السَّقاء) لأن له جملا كان يحمل الماء عليه إلى المدينة، ولا عار بالسقاية على عامل كادح لرزقه، ولكن الذي يسمّي مورد الماء إلى محلة قومه سقاء يكشف عن شهوة للتحقير لا يسلم منها مدير شركة الماء في مدينة من المدن على ألسنة الحساد والمبغضين!.

والذي روي عن أبيه أنه كان رجلاً كريماً يحسن القيام على تربية ابنه، ويدفع به إلى أساتذة عصره، وأطراف البادية من حوله، لتقويم لسانه، وتهذيب فكره.

ويقول الثعالبي في اليتيمة: (ذكرت الرواة أنه ولد بالكوفة في كندة سنة ثلاث وثلاثمائة، وأن أباه سافر به إلى بلاد الشام، فلم يزل ينقله من باديتها إلى حضرها، ومن مدرها إلى وبرها، ويسلمه إلى المكاتب، ويردَّده في القبائل، ومخايله نواطق الحسنى عنه، وضوامن النجح فيه، حتى توفي أبوه، وقد ترعرع أبو الطيب، وشعر وبرع).

والمشهور من نسبته أنه هو: أحمد بن حسين بن مرة بن عبدالجبار الجعفي الكندي نسبة إلى محلة كندة بالكوفة.

والمتفـق عليه أنه كان من المبكرين في نبوغه، فقد مات وهو في الخمسين بعـد أن ملأ الدنيا شهـرة وشعراً زهاء ربع قرن من عنفـوان صباه إلى يوم مصرعه. وقيل: إنه آنس من نفسه قدرة يطمح بها إلى دعوى النبوة وهو في نحو العشرين.. ولا يبعد أن يكون الرجل قد فعلها في دفعة من دفعات الصبا والغـرور، لأنه نشـأ في عصر المغامرات في طلب الرياسـة ديناً ودنياً. وشهد بعينه من الفتن الدينية علـى عهد القرامطة ما يوسوس للطامع على غراره بتجربة حظه في إحدى مغامراتها، واختلطت في زمانه دعوة الباطنية بدعوة القرامطة، وكان يزعم الزاعمون أن هؤلاء يدينون بـ(المانوية) أي بالأصلين النور والظلمة، وهي النحلة القديمة التي ذكرها المتنبي في شعره. ولعله لقي أناساً من أتباعها من المجوس في الكوفة، لقربها من البلاد الفارسية، وسمع مـن أسرار الفلسفة ما (هوَّسه) وأضله كمـا قال بعض مؤرخيه فيما تقدم، ثم ذهبت صدمة التجارب بغواية هذه (الهوسة) الصبيانية، وتركت بعدها (هوستـه) التي لم تفارقه بطلـب الرياسة من طريق الولاية، فإن كانت هذه الغوايـة أمراً لا يستبعد من الرجل في دفعة صباه وغروره، فلنذكر كذلك أن افتراءهـا غير بعيد على خصومه، وأن العلامـة ابن جنِّي ربما كان قد ذكر الصواب حين قال: إنه لقب بالمتنبي بقوله:

أنـا في أمَّـة تـداركـهـا اللـ
ـه غـريـبٌ كـ(صـالـح) في (ثـمـودِ)
مـا مـقـامـي بـأرضـ نـخـلـةَ إلا
كـمـقـام (المـسـيـح) بـين الـيـهـودِ

ومجمـل تاريخ أبـي الطيب بعد ما نسب إليه من دعـوى النبوة: أنه لحق بالأمير العربي التغلبيِّ (أبي الحسن علي الملقب بسيف الدولة) أمير الدولة

الحمدانية، ولم يزل مصاحباً له في حله وترحاله وحربه وسلمه، حتى وقعت الوقعة بينه وبين (ابن خالويه) فضربه هذا بمفتاح في يده، ولم ينصفه (سيف الدولة) لأنه كان ينقم عليه ترفعه وتعاليه عن موالاته بالمدائح، بعد طول مكثه في صحبته، ففارق حلب (سنة ست وأربعين وثلاثمائة) واستجاب لدعوة (كافور الإخشيدي) بمصر طمعاً في ولاية من ولاياتها، قيل إنه كان على وعد من (كافور) بإسنادها إليه بعد وفوده عليه، ثم أخلفه الوعد، فخرج من مصر (سنة خمسين وثلاثمائة) وبالغ في هجائه، ثم قصد إلى (عضد الدولة بن بويه) بفارس فأجزل عطيته، ثم أراد العودة إلى موطنه الكوفة بعد إلمامه بزيارة بغداد. فاجتاز بأرض (فاتك بن أبي جهل) الذي كان قد هجاه، وأفحش في هجائه، فلقيه هذا بعصابة من (بني ضبة) قاتلوه وقاتلهم قتالاً شديداً حتى ساخت به قوائم فرسه، فتمكنوا منه فقتلوه. وتركوا جثته بالعراء، وانقضت بذلك آماله في مجد عصره وأرفعها حضيض إلى جانب الذروة التي تمهدت له من مجد العصور، ورثاه أكثر من شاعر من كبار معاصريه، أبلغهم (أبو القاسم المظفر) الذي قال فيه:

ما رأى الناس ثانيَ المتنبّي
أيَّ ثان يُرَى لبِكر الزَّمان
كان من نفسهِ الكبيرةِ في جَيـ
ـشٍ وفي كبرياء ذِي سلطانِ
هوَ في شعرِه نبيٌّ، ولكن
ظهرَتْ معجزاتُه في المعاني

المختار من شعر أبي الطيب المتنبي

في هذا القسم المخصص لديوان الشاعر نتحرى في الاختيار تقديم شعر الشواهد الذي يفسر لنا أخبار حياته، ويدل على مبلغ الأصالة في تفكيره الذي يستوحيه من مزاجه ومن ثقافته بدافع من طبعه، وتلك هي الشواهد التي يصح أن نخرج منها بفلسفة الشاعر في مسائل الحكمة والخلق، وذوُّق التعبير والبيان. وينطوي فيها كل شعر مطبوع له، ولو كان من أغراض المديح والتخلص التي تحسب من عرض القول ونوافل النظم. وهي لا تخلو في كل شاعر مطبوع من دلالة على سليقته وأصالة فكره وشعوره.

ولم يكن المتنبي منفرداً بين كبار شعراء العربية بثقافته الدينية أو باطلاعه على قصص الأنبياء وأخبار الدعوات والمذاهب المعتقدة أو غير المعتقدة، فربما كان منهم من يعلم علمه بها أو يزيد عليه، ولكنهم -جميعاً- لم يكن منهم واحد تسبق أسماء الأنبياء والدعاة إلى خاطره وهو ينظم قصائده. كما سبقت هذه الأسماء إلى خاطر المتنبي في جميع أغراضه. ولو لم تكن لها صلة بالبحث في العقيدة أو الدين.

فهو يقول في قصيدة من شعر المديح:

لَوْ كانَ ذو القَرْنَينِ أعْمَلَ رأيَهُ
لَمّا رأى الظُّلماتِ صِرْنَ شُمُوسَا
أو كانَ صادَفَ رأسَ (عازَرَ) سَيفُهُ
في يوْمِ مَعرَكَةٍ لأعْيا (عيسَى)
أوْ كانَ لُجُّ البَحْرِ مِثْلَ يَمينِه
ما انْشَقَّ حتى جازَ فيهِ (مُوسَى)

ويمدح أيضاً فيقول:

وكأنّما (عيسَى ابنُ مَـرْيَمَ) ذِكْـرُهُ
وكـأنّ (عــازَرَ) شَـخْصُـهُ المَقْبُـورُ

ويقول في المديح أيضاً:

فـــآجَــرَكَ الإلـــهُ عـلـى عَـلـيـل
بَـعَـثْـتَ إلى (المَسيـحِ) بـهِ طَبيبا

ويمدح آخر فيقول:

لـو كـان لفظك فيهم ما أنـزل الـ
ــفـرقـان والــتـوراة والإنجـيـلا

ويقول في الشكوى:

مـا مـقـامـي بـأرضِ نـخـلـةَ إلا
كـمقـام (المسيح) بـين (الـيـهـودِ)
أنــا في أمّـــة تـداركـهـا الـلـ
ـه غـريـبٌ كـ(صـالـحٍ) في (ثـمـودِ)

ويقول واصفاً:

مَـلاعِـبُ جِـنَّـةٍ لَـوْ سَـارَ فـيـهَـا
(سُـلَـيْـمَـانٌ) لَـسَـارَ بِـتَـرْجُـمَـانِ

ويقول راثياً:

خَـرَجُـوا بـه ولـكُـلِّ بـاكٍ خَـلْـفَـهُ
صَعَقَاتُ (مُوسَى) يَـوْمَ دُكَّ الـطُّورُ

ويقول مادحاً:

أنَّى يكُونُ أبا البَرِيَّةِ آدَمٌ
وأبُوكَ والثَّقَلانِ أنتَ محَمَّدُ

ويقول مستعطفاً:

فَلا تَسْمَعَنَّ مِنَ الكَاشحِينَ
وَلا تَعْبَأنَّ بِعِجْلِ (اليَهُودِ)

ويقول متغزلاً:

يَترشفْنَ من فمي قبُلات
هُنَّ أحلى فيه من التوحيد

ويشير إلى قصة خاتم (سليمان) الذي ضاع وتفقده صاحبه أربعين يوماً، ليقول إنه يزيد على تلك الأربعين، إذ يتفقد سكان الأطلال تفقد الشحيح:

بَليتُ بلى الأطْلالِ إنْ لم أقفْ بها
وُقوفَ شَحيح ضاعَ في التُّرْبِ خاتمُهْ

ويذكر دعوة (ماني المجوسي) إذ يقول متغزلاً:

وَكَمْ لظَلام اللَّيْلِ عندَكَ من يَد
تُخَبِّرُ أنَّ (المَانَويَّةَ) تَكْذبُ

وهو يلهج بذكر النبوَّات والدعوات يدل على اشتغال دائم بها، وليس قصاراه أن يدل على مجرد العلم بها كما علم بها غيره من الشعراء.

وفي شعره ما يدل على إحاطة بمذاهب الفلسفة التي تنكر العقيدة على كل وجهة من وجهاتها في إجماله. فقد جمعها بقوله هاجياً (لكافور)

فـإنَّـهُ حُـجَّـةٌ يُـؤذي الـقُـلُـوبَ بـهَـا
مَنْ دينُهُ الـدَّهـرُ وَالتَّعطيلُ وَالـقِـدَمُ

إذ كان الفلاسفـة المنكـرون لا يخرجـون عن مذهب من هـذه المذاهب الثلاثة: وهي الشكوكية، والإلحاد، والقول بقدم العالم بغير حاجة إلى فاعل، وإن لم ينكروا وجود الإله كما ينكره الملحدون... وإشارة المتنبي إلى مصادر الفلسفة اليونانية إشارة قارئ متعمق يعرف من أين جاءت المذاهب التي كان المرددون لأقوال الفلاسفة على السماع ينسبونها كلها تارة إلى أرسطو وتارة أخـرى إلى أفلاطون، وحقيقة الكثير مما نسب إلى (أفلاطون) و(أرسطو) أنـه من عمـل (الإسكندر الأفروديسـي) تلميذ (أفلوطـين) وملخص كتاب (الأثولوجيـا) الـذي عرف باسـم الربوبية. واعتقد قـراؤه بالعربية أنه من كتـب الفلاسفـة الأولين، وإلـى الإسكندر هذا يشير المتنبـي حين قال يمدح ابن العميد:

مَـنْ مُبـلِـغُ الأعـــرابِ أنّي بَعْـدَهـم
جالَستُ رِسطـاليسَ وَالإسكَـنـدَرا
وَسَمِـعْـتُ بَطليـموسَ دارِسَ كُتبِـه
مُـتَـمَـلِّـكـاً مُـتَـبَـدِّيـاً مُـتَـحَـضِّـرا

وليـس للحكمـة اليونانيـة مصـادر أوفى من مصـادر هـؤلاء الحكماء الثلاثة، وقد ظن بعض شراح الشاعر أنه عني بالإسكندر سميه ذا القرنين، وهـو خطأ يدل على الفارق بـين اطلاع الشاعر علـى موضوعاته الفلسفية، واطلاع الأكثرين من المتأدبين في زمانه.

وإذا كان هـذا محصوله من فلسفته الثقافية، فقد يستخرج القارئ من فلسفته المطبوعة مذهباً كاملاً من مذاهب الإيمان بالقوة كمذهب (نيتشه)

في جملة قواعده، فهو دائم التفرقة بين أخلاق السادة وأخلاق العبيد في مواضع شتى من شعره، إذ يقول:

وَمَا في سَطْوَةِ الأرْبابِ عَيْبٌ
وما في ذِلَّةِ العُبْدانِ عَارُ

أو يقول:

إذا أنتَ أكْرَمتَ الكَريمَ مَلَكْتَهُ
وَإنْ أنْتَ أكْرَمتَ اللَئيمَ تَمَرَّدَا

أو يقول مستنكراً التسوية بين الخليقتين:

تَشَابَهَت البَهَائمُ وَالعبدَى
عَلَيْنَا وَالمَوَالي وَالصَميمُ

أو يقول في هذا المعنى:

وَشَرُّ ما قَنَصَتهُ راحَتي قَنَصٌ
شُهبُ البُزاةِ سَواءٌ فيهِ وَالرَخَمُ

وإنما يطلب (الامتياز) ولو بين العين والعين، كما قال:

هوَ الجَدَ حتى تَفْضُلُ العَينُ أُختَهَا
وَحتى يصيرَ اليَوْمُ لليَوْمِ سَيِّدَا

وإنما الحياة أبغض من الموت إذا تساوى فيها حظه وحظ من هو دونه:

وما موت بأبغض من حياة
أرى لهم معي فيها نصيبا

وإنما كان طلب القوة والتمام، لا طلب البقاء والسلامة، هو قانون الحياة المثلى في عقيدة (أبي الطيب) قبل عقيدة (نيتشه) بعدة قرون:

ولم أرَ في عيوب الناس عيباً
كنقص القادرين على التمام

وقد ناقش مذهب (داروين) في حب البقاء بكل صحة يدين بها فيلسوف القوة وهو يأنف من القناعة بمجرد البقاء، فليس معنى حب البقاء عند طالب المجد إلا أنه يبقى في عزة مجده، ولو كلفه ذلك أن يقتحم موارد الهلكة:

أرَى كُلَّنَا يَبْغي الحَيَاةَ لنَفْسه
حَريصاً عَلَيها مُسْتَهاماً بها صَبَا
فحُبُّ الجَبَانِ النَفْسَ أوْرَثَهُ التقى
وَحُبُّ الشَجاعِ النفس أوْرَدهُ الحرْبَا

وذاك أن مذاق الموت أطيب من مذاق الهوان عند طالب العزة والكرامة، وإن تساوى الأعزاء والأذلاء في حب الحياة:

ومراد النفوس أهون من أن
نتعادى فيه وأن نتفانى
غير أن الفتى يلاقي المنايا
كالحات ولا يلاقي الهوانا

أو كما قال:

وَشَرُّ الحمَامَينِ الزؤامَين عيشَةٌ
يَذِلُّ الذي يَختَارُها وَيُضامُ

وغاية الصدق في الإبانة عن الطبع، والتعبير عن الشعور بوحي السليقة أن يكون الشاعر محيطاً باللباب من فلسفة القوة إحاطة الفيلسوف العالم الذي يعالجها تفكيراً، أو بحثاً ودراسة لأخلاق البطولة في حاضر زمنه، أو في صحائف التاريخ.

بـل غاية الصدق للطبع الأصيـل أننا قد نستخرج أصول (فلسفة القوة) مـن وصف هذا الشاعـر لكل ظاهرة مـن ظواهر الحيـاة، وكل ظاهرة من ظواهـر الطبيعـة، فضلاً عن وصف البطولـة الإنسانية علـى مثالها الأعلى في أشخاص ممدوحيه، ولا سيمـا ممدوحه ذلك البطل الحق منهم (سيف الدولة بن حمدان).

ففي بعض مدائحه له بعد بنائه لثغر (الحدث) يقول:

يُكَلِّفُ (سيفُ الدَّوْلَةِ) الجيشَ هَمَّهُ
وَقد عَجزَتْ عنهُ الجيوشُ الخضارمُ
وَيَطلُبُ عندَ النّاسِ ما عندَ نفسه
وَذلكَ ما لا تَدّعيه الضَّرَاغِمُ
تُفَدّي أتَمُّ الطّيرِ عُمْراً سلاحَهُ
نُسُورُ الفَلا أحداثُها وَالقَشاعِمُ[1]
وَما ضَرّها خَلْقٌ بغَيرِ مَخالبٍ
وَقَدْ خُلِقَتْ أسيافُهُ وَالقَوائِمُ
هَلِ الحَدَثُ الحَمراءُ تَعرِفُ لوْنَها
وتعرف أيُّ السّاقيَيْنِ الغَمَائِمُ
سَقَتْها الغَمَامُ الغُرُّ قَبْلَ نُزُولِه
فَلَمّا دَنَا منها سَقَتها الجَماجِمُ
بَنَاهَا فأعْلى وَالقَنَا يَقْرَعُ القَنَا
وَمَوْجُ المَنَايَا حَوْلَها مُتَلاطِمُ

(1) القشاعم: جمع قشعم، النسر الكبير.

وَكانَ بهَا مثْلُ الجُنُون فأصْبَحَتْ
وَمِنْ جُثَث القَتْلى عَلَيْها تَمائِمُ[1]
وكيفَ تُرَجّي الرَومُ والرّوسُ هدمَها
وَذا الطّعْنُ آساسٌ لهَا وَدَعائِمُ

***

أتَوْكَ يَجُرّونَ الحَديدَ كَأنّمَا
سَرَوْا بِجِيَادٍ مَا لَهُنّ قَوَائِمُ

***

خميسٌ بشرْق الأرْض وَالغرْب زَحْفُهُ
وَفي أُذُنِ الجَوْزَاء منهُ زَمَازِمُ
تَجَمّعَ فيه كلُّ لِسْنٍ وَأُمّةٍ
فَمَا يُفْهم الحُدّاث إلاّ التَراجِمُ

***

وَقَفْتَ وَما في المَوْت شكٌّ لوَاقف
كأنّكَ في جَفن الرّدَى وهْوَ نائِمُ
تَمُرّ بكَ الأبطالُ كَلْمَى هَزيمَةً
وَوَجْهُكَ وَضّاحٌ وَثَغْرُكَ باسِمُ
تجاوَزْتَ مِقدارَ الشّجاعَة والنُّهَى
إلى قَوْلِ قَوْمٍ أنتَ بالغَيْبِ عالِمُ

***

(1) التميمة: تعويذة تعلق على المرضى والمجانين.

وبمثـل هذه الروعة يقـع في النفس وصفه للأسد مـن قصيدة يمدح بها فارسـاً آخر، يذكـر ببطولة لا تقل عن بطولة (سيـف الدولة) وهو (بدر بن عمـار) الذي كان يلقى الأسود بسوطـه، ويهيجها عن فرائسها وهي أشد ما تكون ضراوة وبأساً! قال (يخاطب ابن عمار):

أَمُعَفِّرَ اللَيثِ الهِزَبرِ بِسَوطِهِ
لِمَن ادَّخَرتَ الصارِمَ المَصقولا
وَقَعَت عَلى الأُردُنِّ مِنهُ بَلِيَّةٌ
نُضِدَت بِها هامُ الرِفاقِ تُلولا
وَردٌ إِذا وَرَدَ البُحَيرَةَ شارِباً
وَرَدَ الفُراتَ زَئِيرُهُ وَالنيلا
مُتَخَضِّبٌ بِدَمِ الفَوارِسِ لابِسٌ
في غيلِهِ مِن لِبدَتَيهِ غيلا
ما قوبِلَت عَيناهُ إِلّا ظُنَّتا
تَحتَ الدُجى نارَ الفَريقِ حُلولا
في وَحدَةِ الرُهبانِ إِلّا أَنَّهُ
لا يَعرِفُ التَحريمَ وَالتَحليلا
يَطَءُ الثَرى مُتَرَفِّقاً مِن تيهِهِ
فَكَأَنَّهُ آسٍ يَجُسُّ عَليلا
وَيَرُدُّ عُفرَتَهُ إِلى يافوخِهِ
حَتّى تَصيرَ لِرَأسِهِ إِكليلا

***

قَصرَت مَخافَتُهُ الخُطى فَكَأَنَّما
رَكِبَ الكَمِيُّ جَوادَهُ مَشكولا
أَلقى فَريسَتَهُ وَبَربَرَ دونَها
وَقَرُبتَ قُرباً خالَهُ تَطفيلا
فَتَشابَهُ الخلقان في إقدامه
وَتَخالَفا في بَذلِكَ المَأكولا

***

ما زالَ يَجمَعُ نَفسَهُ في زَوره
حَتّى حَسبتَ العَرضَ منهُ الطولا
وَيَدُقُّ بالصَدرِ الحِجارَ كَأَنَّهُ
يَبغي إلى ما في الحَضيض سَبيلا
وَكَأَنَّهُ غَرَّتهُ عَينٌ فادَّنى
لا يُبصرُ الخَطبَ الجَليلَ جَليلا
أَنفُ الكَريم مِنَ الدنيئة تارِكٌ
في عَينِهِ العَدَدَ الكَثيرَ قَليلا
وَالعارُ مَضّاضٌ وَلَيسَ بخائف
من حَتفه مَن خافَ مِمّا قيلا
سَبَقَ التقاءَكَهُ بِوَثبَة هاجم
لَو لَم تُصادمهُ لَجازَكَ ميلا
خَذَلَتهُ قُوَّتُهُ وَقَد كافَحتَهُ
فاستَنصَرَ التَسليمَ وَالتَجديلا
قَبَضَت مَنيَّتُهُ يَدَيه وَعُنقَهُ
فَكَأَنَّما صادَفتَهُ مَغلولا

***

وكهـذا الوصـف في صدق الشعور بالقـوة الحيوية حيـث كانت، قوله في وصف فرس خرج به للصيد:

وَيَـومْ كَلَيْلِ العَاشقينَ كمَنْتُهُ
أُرَاقِبُ فيه الشَّمسَ أيَانَ تَغرُبُ
وَعَيْنِي إلى أُذنَيْ أغَرَّ كَأنَهُ
منَ اللّيْلِ باقٍ بَينَ عَيْنَيْه كوْكَبُ
لَهُ فَضْلَةٌ عَنْ جِسْمِه في إهَابِه
تَجيءُ على صَدْرٍ رَحيبٍ وَتذهَبُ
شَقَقْتُ به الظّلْماءَ أُدْني عنَانَهُ
فيَطْغَى وأُرْخيه مراراً فيَلْعَبُ
وَأصرَعُ أيَ الوَحشِ قفَيْتُهُ به
وَأنْزلُ عنْهُ مثْلَهُ حينَ أرْكَبُ
وَما الخَيلُ إلاَ كالصّديقِ قَليلَةٌ
وَإنْ كَثُرَتْ في عَينِ مَن لا يجرّبُ

***

والبحـيرة ماء وهواء حين نلقي عليها النظر بين ظواهر الطبيعة، ولكنها ميـدان تصطرع فيـه القوى حـين ينظر إليها (أبـو الطيب) كمـا نظر إلى (بحيرة طبرية):

لَوْلاكَ لم أتـرُك البُحَيرَةَ والـ
ـغَوْرُ دَفِئٌ وماؤهـا شَبِمُ[1]

(1) شبم: أي بارد

والمَــوْجُ مــثْـلُ الـفُـحـولِ مُــزْبِـدَةً
تَــهْــدِرُ فيـهـا ومــا بِـهـا قَـطَـمُ[1]
والـطَّـيرُ فَـوْقَ الحَـبـاب تَحسَبُها
فُـرْسـانَ بُـلْـقٍ تَـخُـونُـهَـا الـلُّـجُـمُ
كـأنَّـهـا والــرِّيــاحُ تَـضْــرِبُـهَـا
جَـيْـشـا وَغــى هــازِمٌ ومُــنْـهَـزِمُ

***

تَـغَـنَّـتِ الـطَّـيرُ في جَـوانـبـهـا
وجـــادَتِ الـروضَ حَـوْلَـهـا الـدِّيَمُ
فَــهْــيَ كَـمَــاوِيَّــةٍ مُـطَــوَّقَــةٍ
جُـــرِّدَ عَـنـهـا غِـشـاؤهـا الأَدَمُ

***

وإذا اتسعت فلسفة القوة لشيء من فلسفة اللذة إلى جانبها سمعت لها من (المتنبي) نغمة نادرة تستغربها في مثل قوله:

أنْــعِــمْ ولَـــذَّ فَـلـلأمــورِ أواخــرٌ
أبَـــداً إذا كــانَــتْ لَـهُــنَّ أوائــلُ
مـا دُمْـتَ مِـنْ أَرَبِ الحِسـانِ فإنّمـا
رَوْقُ الـشَّـبـابِ عـلَـيكَ ظـلٌّ زائـلُ

ولا تكاد تستغربها حتى تسمع في القصيدة نفسها نغمة للحب كأنها قعقعة السلاح، إذ يقول في وصف الحسان:

---

(1) القطم: الشهوة

الـرَّامِـيـاتُ لَـنَـا وهُـنَّ نَـوافِـرُ
والخـاتِـلاتُ لَـنَـا وهُـنَّ غَـوافِـلُ
مِـنْ طاعـنـي ثُغَرِ[1] الـرِّجـالِ جـآذِرٌ
ومِـنَ الـرِّمـاحِ دَمَـالِـجٌ وخَـلاخِـلُ
ولِـذا اسمُ أغطِيَةِ العُيُونِ جُفُونُها
مِـنْ أنّـهـا عَـمَـلَ السُّيُوفِ عَـوامِـلُ

وعلـى شرط الإبـاء والأنفة تكون الحسان مـن أرب الفتى، لأن الفتى – وروق الشبـاب يظله – هو أيضاً من أرب الحسان، وعلى شرط الإباء والأنفة كذلك تكون للمليحة ساعتها ثم يفترقان:

وَلِـلـخَـوْدِ مِنّـي سـاعَـةٌ ثُـمَّ بَيْـنَـنَـا
فَـلاةٌ إلى غَـيـرِ الـلِّـقَـاءِ تُجَـابُ

ولا يكون منزل اللذات أبداً غير منزل الكرامة والتبجيل:

وَمَـا مَـنـزِلُ الـلّـذّاتِ عـنـدي بِمَـنْـزِلٍ
إذا لم أُبَـجَّـلْ عِـنْـدَهُ وَأُكَـرَّمِ

وندر من الشعراء من يحتفظ بطابعه في مفرداته ومتفرقاته كما يحتفظ بها في مطولاته أو جملة الأبيات من مقطوعاته، وأبو الطيب من أوائل هؤلاء النـوادر الذين يعرفون بالبيت الواحد مـن أشعارهم، بل بالشطرة المنفردة مـن البيت، لأنه قد عرف بأبياته التـي سارت مسير الأمثال بين جمهرة من رواة الشعـر لم تعرفه بغير تلـك الأبيات، ويقع النظر على أمثاله هذه حيثما تقلبـت أمامه صفحات الديـوان بغير إطالة ولا إنعـام في البحث والاختيار، وهذه طائفة متفرقة منها تدل عليها ولا تحصيها ونتبعها نحن بين صفحات

---

(1) جمع ثغرة، وهي نقرة النحر بين الترقوتين.

الديوان على هذا المنوال:

عَلى قَدْرِ أهْلِ العَزْم تأتي العَزائِمُ
وَتأتي علَى قَدْرِ الكِرامِ المَكارِمُ
وَتَعْظُمُ في عَينِ الصَغيرِ صغارُها
وَتَصْغُرُ في عَينِ العَظيمِ العَظائِمُ

***

ومَنْ طَلَب الفتح الجليل فإنما
مَفَاتيحُه البيضُ الخِفافُ الصوارِمُ

***

وَمَن يَجعَلِ الضرغامَ بازاً لصَيده
تَصَيَّدَهُ الضِرغامُ فيما تَصَيَّدا

***

لَقد أباحَكَ غشّاً في مُعامَلَة
مَن كنتَ منهُ بغَيرِ الصَدقِ تَنتَفعُ

***

إنّا لَفي زَمَن تَرْكُ القَبيح به
من أكثرِ النَاسِ إحْسانٌ وَإجْمالُ
لَوْلا المَشَقّةُ سَادَ النَاسُ كُلُّهُمُ
الجُودُ يُفْقِرُ وَالإقْدامُ قَتّالُ
ذِكْرُ الفتى عُمْرُهُ الثَاني وَحاجَتُهُ
مَا قَاتَهُ وَفُضُولُ العَيشِ أشغَالُ

***

لَـوْلا الـعُـقـولُ لـكـانَ أدنَــى ضَـيـغَـم
أدنَـــى إلى شَــرَف مِــنَ الإنْـسَــانِ

***

إذا ســاءَ فـعْـلُ المــرْء ســاءَتْ ظـنُـونُـهُ
وَصَـــدَّقَ مَــا يَـعـتَــادُهُ مـن تـوَهُّـم
وَعَـــادَى مُـحـبِّـيـه بـقَـوْلِ عُـداتـه
وأصْـبَـحَ في لَـيـل مـنَ الـشّـكِّ مُـظلـم
لَـنْ تَـطْـلُـبُ الـدّنْـيـا إذا لم تُـرِدْ بها
سُــرُورَ مُحِــبٍّ أوْ إســاءَةَ مُجِــرمِ؟

***

تـريـديـنَ إدراك المَـعَـالي رخيصـةً
ولا بُـدَّ دونَ الشَّهْدِ مِـن إبـرِ النَّحْلِ

***

وإذا كــانَــت الـنّـفُـوسُ كـبــاراً
تَـعِـبَـتْ في مُــرادِهــا الأجْـســامُ

***

وما يَنفَعُ الأُسْدَ الحَياءُ من الطَّوَى
وَلا تُـتّـقَـى حتـى تـكـونَ ضَـوَارِيَـا

***

مـا كـلُّ مـا يـتمـنَّـى المــرء يـدركُـهُ
تجري الرياحُ بما لا تشتهي السُفُنُ

***

أعَــزُّ مَـكـان في الـدُّنَـى ظهـر سابح
وَخَــيرُ جَـليـسٍ في الــزَمــانِ كـتـابُ

***

وأظلمُ أهل الأرض من بات حاسداً
لمــن بـــات في نـعـمـائـه يـتـقـلـبُ

***

وَحـيـدٌ مــنَ الإخــوان في كـلّ بَـلْـدَة
إذا عَـظُـمَ المَـطـلُـوبُ قـلَ المُـسـاعِـدُ

***

ومن نَكَد الدّنْيا على الحُرّ أنْ يَرَى
عَـــدُوّاً لَــهُ مـا مـن صَـداقَـتِـه بُـدُّ

***

فَلا مَجْـدَ في الـدّنْـيَـا لمَـنْ قَـلّ مَـالُـهُ
وَلا مـالَ في الـدّنـيـا لمَـنْ قَـلّ مَجـدُهُ

***

إنّمَـــا تُــنْـجِـحُ المَــقَـــالَـــةُ في المَــرْ
ءِ إذا صــادفـت هَــوىً في الـفُـؤادِ

***

إنَ السَلاحَ جَميعُ النّاسِ تَحْملُهُ
وَلَيسَ كلُّ ذواتِ المِخْلَبِ السَّبُعُ

***

وَمَا الحُسْنُ في وَجْه الفتى شَرَفاً لَهُ
إذا لم يكُنْ في فِعْلِهِ وَالخَلائِقِ

***

إلْفُ هذا الهَواءِ أوْقَعَ في الأنْـ
ـفُسِ أنّ الحِمامَ مُرُّ المَذاقِ
والأسَى قبلَ فُرْقَةِ الرّوحِ عجزٌ
والأسَى لا يكونُ بَعدَ الفِراقِ

***

وَلَيسَ يَصِحّ في الأذهانِ شيءٌ
إذا احتَاجَ النّهارُ إلى دَليلِ

***

آلَةُ العَيشِ صِحّةٌ وَشَبابٌ
فإذا وَلّيَا عَنِ المَرْءِ وَلى
وَإذا الشّيخُ قالَ أُفٌّ فَمَا مَـ
ـلّ حَيَاةً وَإنّمَا الضّعْفَ مَلاّ

***

إنَّمَا أنْفُسُ الأَنيسِ سِبَاعٌ
يَتَفَارَسْنَ جَهْرَةً وَاغْتِيالا
مَنْ أطَاقَ الْتماسَ شيءٍ غِلاباً
وَاغْتِصَاباً لم يَلْتَمِسْهُ سُؤالا

***

وَالظّلمُ من شيَمِ النّفوسِ فإن تجدْ
ذا عِفّةٍ فَلِعِلّةٍ لا يَظْلِمُ

***

وَمَا انْتفَاعُ أخي الدّنْيَا بِنَاظِرِهِ
إذا اسْتَوَتْ عِنْدَهُ الأنْوارُ وَالظُّلَمُ

***

شَرُّ البِلادِ بِلادٌ لا صَديقَ بها
وَشَرُّ ما يَكسبُ الإنسانُ ما يَصِمُ

***

من الحلمِ أنْ تَستَعمِلَ الجهلَ دونَهُ
إذا اتّسعتْ في الحلمِ طُرْقُ المظالمِ

***

ومَنْ عَرَفَ الأيّامَ مَعرِفتي بها
وبالنّاسِ رَوّى رُمحَهُ غيرَ راحِمِ
فَلَيسَ بمَرْحُومٍ إذا ظَفِروا بهِ
ولا في الرّدى الجاري عَلَيهِم بآثِمِ

***

ذو العَقل يَشقى في النَعيم بعَقْله

وَأخـو الجَهالَـة في الشَـقاوَة يَنعَمُ

***

كُـلَـمَـا أنْـبَـتَ الـزَمَـانُ قَـنَـاةً

رَكَـبَ المَـرْءُ في الـقَـنَـاة سِـنَـانَـا

***

وَلَـوَ أنَ الحَـيَـاةَ تَـبْـقَـى لحَـيٍّ

لَـعَـدَدْنَـا أضَـلَـنَـا الـشُـجْـعَـانَـا

وَإذا لم يَـكُـنْ مِـنَ المَـوْت بُـدٌّ

فَـمِـنَ الـعَـجْـزِ أنْ تمـوت جَـبَـانَـا

***

كلّ ما لم يكُنْ من الصَعب في الأنـ

ـفُسِ سَـهْـلٌ فيهـا إذا هـوَ كـانَـا

***

إذا غـامَـرْتَ في شَـرَف مَـرُوم

فَـلا تَـقـنَـعْ بمـاً دونَ الـنَـجـوم

فـطَـعْـمُ المَـوْت في أمْـر حَـقـير

كـطَـعْـم المَـوْت في أمْـر عَـظـيم

يـرَى الجُـبَـنـاءُ أنَ الـعَـجـزَ عَـقْـلٌ

وتـلـكَ خَـديـعَـةُ الـطَـبـعِ الـلَـئيـم

***

وكـمْ مـن عـائـب قـوْلاً صَحيحاً

وآفَـتُـهُ مِـنَ الـفَـهْـم السّـقيـم

ولـكـنْ تـأخُـذُ الأسـمـاع مِـنْـهُ

عـلـى قَـدَرِ الـقَـرائـحِ والـفـهـوم

***

مَن كانَ فوْقَ مَحلّ الشّمس موْضعُه

فَلَيْسَ يَرْفَعُهُ شَيءٌ وَلا يَضَعُ

***

فَقَدْ يُظَنّ شُجاعاً مَنْ بـه خَرَقٌ

وَقَدْ يُظَنّ جَبَاناً مَنْ بـه زَمَعُ

***

وَمَا الخَوْفُ إلاّ مَا تَخَوّفَهُ الفَتى

وَمَا الأمْنُ إلاّ ما رآهُ الفَتى أمْنَا

***

ليستْ صَبابَةُ مُشْتاق على أمَل

مِنَ اللّقَاء كمُشْتَاقٍ بلا أمَلِ

***

وَلَكنْ إذا لمْ يَحْمل القَلْبُ كفَّهُ

على حَالَةٍ لم يَحْملِ الكَفَّ ساعدُ

***

وَكلٌّ يَرَى طُرْقَ الشَّجاعَةِ والنّدى
وَلكِنَّ طَبْعَ المرء للمرء قائدُ

***

فإنَّ قَليلَ الحُبِّ بالعَقْلِ صالحٌ
وَإنَّ كَثيرَ الحُبِّ بالجَهْلِ فاسدُ

***

وَمَن سَرّ أهْلَ الأرْضِ ثمّ بكَى أسًى
بكَى بعُيُونٍ سَرّهَا وَقُلُوبِ

***

فَرُبّ كَئيبٍ لَيسَ تَنْدَى جُفُونُهُ
وَرُبّ نَديِّ الجَفْنِ غَيرُ كَئيبِ

***

وَمَا كُلُّ ذي لُبٍّ بمُؤْتيكَ نُصْحَهُ
وما كُلُّ مُؤْتٍ نُصْحَهُ بلَبيبِ

***

وَفي تَعَبٍ مَن يحسُدُ الشمسَ نورَها
وَيطمَعُ أنْ يأتي لهَا بضَريبِ

***

وَمن صَحبَ الدّنيا طَويلاً تَقَلّبَتْ
على عَيْنِهِ حتى يَرَى صِدْقَها كذبَا

***

وَلَسْتُ أُبالي بَعدَ إدراكيَ العُلَى
أكانَ تُراثاً ما تَناوَلْتُ أمْ كَسْبَا؟

***

إذا رَأَيْتَ نُيُوبَ اللَّيْث بارِزَةً
فَلا تَظُنَّنَّ أنَ اللَّيْثَ يَبْتَسِمُ

***

الهَجْرُ أقْتَلُ لي ممّا أُراقِبُهُ
أنَا الغَريقُ فَما خَوْفي مِنَ البَلَلِ

***

قَدْ ذُقْتُ شِدَّةَ أيّامي وَلَذَّتَهَا
فَمَا حَصَلتُ على صابٍ وَلا عَسَلِ
خُذْ ما تَراهُ وَدَعْ شَيْئاً سَمِعْتَ بِهِ
في طَلعَةِ الشمس ما يُغنيكَ عن زُحَلِ

***

لا تَعْذُلِ المُشْتَاقَ في أشْواقِهِ
حتّى يَكونَ حَشاكَ في أحْشائِهِ

***

إنَ القَتيلَ مُضَرَّجاً بِدُمُوعِهِ
مِثْلُ القَتيلِ مُضَرَّجاً بِدمائِهِ

***

وَلا تَطْمَعَنْ من حاسد في مَوَدّة
وَإنْ كُنْتَ تُبْديهَا لَهُ وَتُنيلُ

***

يَهُونُ عَلَيْنَا أنْ تُصابَ جُسُومُنَا
وَتَسْلَمَ أعْرَاضٌ لَنَا وَعُقُولُ

***

وَمَا كُلَّ مَنْ قَالَ قَوْلاً وَفَى
وَلا كُلُّ مَنْ سِيمَ خَسْفاً أبَى

***

وَالأمْرُ لله، رُبَّ مُجْتَهِد
مَا خَابَ إلاّ لأنّهُ جَاهِدْ

***

فإنْ تكنْ تَغلبُ الغَلباءُ[1] عُنصُرَهَا
فإنَّ في الخَمرِ معنًى ليسَ في العنَبِ

***

أفدي ظِبَاءَ فَلاة مَا عَرَفْنَ بِهَا
مَضْغَ الكلامِ وَلا صَبغَ الحَوَاجيبِ
وَلا بَرَزْنَ مِنَ الحَمّامِ مَائِلَةً
أعجازهن صَقيلاتِ العَرَاقيبِ

---

(1) تطلق الغلباء على تغلب (قبيلة سيف الدولة).

وَمـنْ هَـوَى كـلَّ مَـن ليستْ مُمَوَّهَـةً
تـرَكْتُ لَـوْنَ مَشيبي غيرَ مَخضُوب
وَمن هَوَى الصّدق في قَوْلي وَعادَته
رَغبْتُ عـن شَعرٍ في الـرّأس مكذوب
لَيتَ الحَـوَادثَ باعَتني الـذي أخـذَتْ
مني بحلمي الذي أعطَتْ وَتَجريبي
فَمَـا الحَـداثَـةُ مـن حـلْم بمَـانعَـة
قد يُوجَدُ الحِلمُ في الشبّانِ وَالشِّيب

***

وهــذه ثـروة من المثـل السائـر لا نعلم لها نظـيراً فيمـا يستشهد به من مفـردات الشعراء الكبـار ومتفرقاتهم غير شواهـد (شكسبير) في رواياته التـي زادت على الثلاثين، وهي علـى رجحانها في الكثرة لا يجد فيها طلاب الشواهـد أمثلة أوفـق لموضعها، وأصدق في دلالتها علـى تجارب الحياة من هـذا الفيض الزاخـر في ديوان (أبـي الطيب) علـى صغـره، بالقياس إلى منظوم (شكسبير) ومنثوره، وتتساوى شواهد الشاعرين في خصلة واحدة، ينتفع بها نقاد الأدب الذين يخلطون بين شعر الحكمة وشعر التفكير المجرد مـن البواعث النفسية، فإن كلمة الحكمة تخدع هؤلاء فيحسبونها ضرباً من حكمـة التعقل المحض الذي يشبه معادلات الرياضة وحقائق الحساب، وهي في الواقـع تحتوي من بواعث النفس وشواغل العاطفة ألواناً لا يحتويها شعر الغـزل ولا شعر الحماسة، لأنها خلاصة تجـارب الحياة بما وسعت من أمل ويأس، ومن فرح وحزن، ومـن فَلاح وخيبة، ومن حب وبغضاء، ومن خلاف ووفـاق على نوازع الحس ومذاهب الآراء، لا يدركهـا الشاعر لأنه تَأَمَّلَ فيها

بينــه وبين أوراقه ومطالعاته، ولكنــه يدركها لأنه خاض غمار دنياه، وتمرس بآفاتها، وابتلي بما يقيمه ويقعده من أهوالها وشدائدها، وليس رضا السامع عنهــا لأنهــا فكرة صحت حسبتهــا كما تصح جداول الحســاب عنده، وإنما يرضــى عنها رضا الارتياح لما وافق شعوره، ولما فسر له من غوامضه وبسط له من مغلقاته وأسراره.

وهــذه هي مزيــة الطبع الصــادق والحكمــة (الحيوية) التــي امتاز بها (أبوالطيــب) فجعلتــه بحــق شاعر العربيــة، ولســان عبقريتهــا وترجمان بلاغتهــا. وهــي مزية يتممها الســؤال عن مكان الفن في لفظــه ومعناه، بعد العلــم بمكان (الطبع) من تعبيره، ولابد من هذا السؤال في التعريف بشاعر مشهــور بلــغ بالشهرة غاية مداها في القــرن الرابع للهجرة بعــد أيام (ابن المعتــز) و(مسلــم بن الوليــد) و(أبي تمــام) وهو من قراء شعــره وجامعي ديوانــه كمــا قيل، فقد يكون هوى الفــن المصنوع امتحاناً قويــاً لذلك الطبع القوي، وبياناً لما تستطيعه فتنة الحلية البراقة من غواية المعدن الأصيل، إذا تجاذبته القوتان في وقت واحد.

و(المتنبــي) لم يُعرض عن المحسنات البديعية، ولكنه أخذ منها بالقسط الــذي يأتي إليه طواعية، لخدمــة طبعه لا لتسخــيره واستخدامه، وأكثر ما كانــت محسناته من قبيــل التشريع والمقابلة والتعريــف والتقسيم، وهي من وسائــل تحليــة المعنى بالتوضيــح والتبيين وقلمــا تذهب به مذهــب التزويق والتنميق، ومن أمثلتها وهي غير قليلة في شعره.

قوله:

فَيَا شَوْقُ ما أبْقَى ويَا لي من النَوَى
ويَا دَمْعُ ما أجْرَى ويَا قلبُ ما أصبَى

أو قوله:

أَزُورُهُمْ وَسَوَادُ اللَّيْلِ يَشفَعُ لي
وَأنثَني وَبَيَاضُ الصّبحِ يُغري بي

أو قوله:

تَمَلّكَهَا الآتي تَمَلُّكَ سَالِبٍ
وَفارَقَهَا المَاضِي فِرَاقَ سَلِيبِ

أو قوله:

بفَرْعٍ يُعيدُ اللّيْلَ والصّبْحُ نَيّرٌ
ووَجهٍ يُعيدُ الصّبحَ واللّيلُ مُظلمُ

أو قوله:

نُعْجٌ مَحاجِرُهُ دُعْجٌ نَواظِرُهُ
حُمْرٌ غَفائِرُهُ سُودٌ غَدائِرُهُ

أو قوله:

شِرَاكُهَا كُورُهَا وَمِشْفَرُهَا
زِمَامُهَا وَالشُّسُوعُ مِقْوَدُهَا

أو قوله:

بِصارِمي مُرْتَدٍ، بِمَخْبُرَتي
مُجْتَزِئٍ، بِالظّلامِ مُشْتَمِلُ

ومن محسناته ما يعد من قبيل الإدلال بالقدرة اللغوية كقوله الذي أراد أن يجمع فيه أكثر ما يجمع من الأفعال في بيت واحد:

عِـشْ، ابْـقَ، اسْـمُ، سُـدْ، قُـدْ، جُـدْ
مُـرْ، انْـهَ، اسْـرِ، فُـهْ، تَـسَـلْ
عِـظْ، ارْمِ صِـبْ، احْـمِ، اغْـزُ، اسْـبِ
رُعْ، زَعْ، دِ، لِ، اثْـنِ، نَـلْ
وَهَــذا دُعــاءٌ لَـو سَـكَـتُّ كُـفيـتَـهُ
لأَنّي سَـأَلْـتُ اللهَ فـيـكَ وَقَـد فَعَل

وقد يغرم أحياناً بتشبيهات كتشبيهات ابن المعتز التي يكثر فيها من ذكر الجواهر والكواكب كما قال متغزلاً:

واستَقْبَلَتْ قَمَرَ السَّماءِ بوَجْهِها
فأرَتْنيَ القَمَرَيْنِ في وقْتٍ مَعَا

أو كما قال:

سَفَرَتْ وبَرْقَعَها الفِراقُ بصُفْرَة
سَتَرَتْ مَحاجِرَها ولم تَكُ بُرْقُعَا
فكأنّها والدّمْعُ يَقْطُرُ فَوْقَها
ذَهَبٌ بسِمْطَيْ لُؤلُؤٍ قد رُصّعَا

فإذا أضيفت هذه الحلية الفنية إلى المعدن الأصيل فهي في النهاية جلاء، لما عنده من الحسن المطبوع وليست من قبيل الطلاء يمسح باليدين، أو التمويه لا يجوز إلا بإغضاء من العينين.

هل تنبأ المتنبئ (1)

سـأل ابن القـارح أبا العلاء عن حقيقة ما ينسب إلـى المتنبي من ادعاء النبـوة فقال في رده الـذي ألحقه برسالة الغفران: (حدثت أنه كان إذا سئل عـن حقيقة هذا اللقب قال هـو من النبوة أي المرتفع مـن الأرض، وكان قد طمـع في شـيء قد طمع فيه من هـو دونه.. وإنما هي مقاديـر يظفر بها من وفـق ولا يراع بالمجتهد أن يخفق، وقد دلت أشياء في ديوانه أنه كان متألهاً.. وإذا رجـع إلى الحقائق فَنُطْق اللسان لا ينبي عن اعتقاد الإنسان لأن العالم مجبـول على الكـذب والنفاق ويحتمـل أن يظهر الرجل بالقـول تديناً وإنما يريـد أن يصـل إلى ثنـاء أو غرض ولعله قـد ذهب جماعة هـم في الظاهر متعبدون وفيما بطن ملحدون).

فأبـو العلاء يقف موقف الشاك المتردد في قبول ما نسب إلى أبي الطيب من دعـوى النبوءة، ولم يكن بين أبي العلاء وأبـي الطيب غير فترة قصيرة مـن الوقت.. إذ كان قتل هذا قبل مولد ذاك بنحو تسع سنوات، فهو أحق أن يتثبت من صدق الخبر لو كان إلى التثبت منه سبيل. وإذا كان هذا الحافظ الثقـة علـى علمه بأخبار المتنبـي وإعجابه به وقربه منه وقلـة تهيبه لدعوى النبـوءة يشـك ويتردد فغاية جهـد التاريخ والأدب أن يقفا هـذا الموقف وألا يجزما برأي في أمر هذه القصة التي رواها عن المتنبي جماعة من معاصريه أكثرهـم من خصومه وحساده الحانقين عليه أو من ملفقي الأحاديث الذين ينقض بعض كلامهم بعضاً فلا يؤخذ مأخذ اليقين إذ لم يثبت من إرهاصات هـذه النبـوءة التي وسم بها الرجل شـيء غير أنه حبس في صبـاه وأنه كان يهجي بها في عصره. وليس كل ما يقرف به المهجو المحسود بحجة عليه.

(1) البلاغ في 4 ديسمبر سنة 1923.

غـير أني والحـق يقـال لا أستبعد دعـوى النبوة على المتنبـي ولا أجدها غريبة منه، ولو أنها ثبتت عليه لما رأيت في ذلك ما يدعو إلى دهشة أو غرابة ويحمـل على حيطة أو زيـادة تنقيب؛ والمتنبي في هـذه القضية من المتهمين الذيـن يكفي لتسجيل التهمـة عليهم أن يسمع القاضي شاهـداً أو شاهدين ثـم يصرف بقية الشهود اكتفاء بما سمع واختصاراً للوقت؛ فالتهمة لاصقة لافقـة؛ ولئن كانت باطلة لا أساس لها ولا نار لدخانها ليكونن الذي رماه بها مـن شياطين المفترين الذين يعرفون كيف يتخيرون التهم لأربابها ويحوكون الأقاويـل على قدر لابسيها، وما كان هؤلاء قليلين في ذلك العصر المضطرب الخبيث الذي صار فيه نشر الدعوة فنّاً والتقول على الخصوم سلاحاً مذرباً.

ولست أظن في المتنبي هذا الظن لأنه (قد طمع في شيء قد طمع فيه من هـو دونه) كمـا قال المعري ولا لأنه لا فرق بينه وبين من تقدمه في هذا الأمر غير أنهم وفقوا وأخطأه التوفيق ووصلوا وعثر هو في وسط الطريق كما يؤخذ مـن تلك الإشارة التي زج بهـا المعري في أثناء رده. ولكني ظننت ذلك الظن لأن نشـأة المتنبي وحالة عصره وشعره وجملة ترجمته كلها مما يوسع العذر للمشتبه ويوائم مقتضيات الدعوى التي نسبت إليه؛ وإليك بيان ذلك.

نشأ المتنبي بالكوفة وهي يومئذ مقر الشيعة ومباءة الشاغبين على خلفاء بنـي العباس من أولاد علـيّ وغيرهم من دعاة النحل وطلاب المغانم؛ وكانت الكوفـة في تلك الأيام التي ولـد فيها المتنبي لا تقر على قرار ولا تنقطع منها الفتن ولا سيمـا من شيعة القرامطة؛ فظهر حولها شأنهم وعظمت شوكتهم وملكوا البحرين وغزوا البصرة وقطعوا طريق الحج أعواماً؛ ولما كان المتنبي في نحو الثانيـة عشرة من عمره غزوا الكوفة ودخلوها وأسروا قائد الخليفة المقتـدر وشتتـوا جيشه؛ ولم تمض سنتـان على ذلك حتى أغـاروا على مكة

ونقلوا منها الحجر الأسود إلى هجر وألقوا جثث القتلى في بئر زمزم؛ وهؤلاء القرامطة قوم كانوا يعلنون الإسلام ويدعى عليهم أنهم كانوا يعتقدون أن روح الله وأرواح أنبيائه تحل في أئمتهم وصلحائهم، وحكى عنهم المعري في رسالة الغفران نقلاً عن بعض محدثيه أن لهم بالأحساء بيتاً يزعمون أن إمامهم يخرج منه ويقيمون على باب ذلك البيت فرساً يسرح ولجاماً ويقولون للهمج الطغام (هذا الفرس لركاب المهدي يركبه متى ظهر) وإنما غرضهم بذلك خدع وتعليل وتوصل إلى المملكة وتضليل، ومن أعجب ما سمعت أن بعض رؤساء القرامطة في الدهر القديم لما حضرته المنية جمع أصحابه وجعل يقول لهم لما أحس الموت: (إني قد عزمت على النقلة وقد كنت بعثت موسى وعيسى ومحمداً ولابد لي أن أبعث غير هؤلاء..)ولابد أن المتنبي قد سأل عن أصل هذه النحلة فأخبر بمنشئها وعرف كيف بدأت وكيف استطاع رجل مثل (كارميتة) الذي تنسب إليه على جهله وقصور عقله أن يجمع إليه أولئك الطغام وأن يحدث في دولة الإسلام هذه الأحداث الجسام؛ ولاشك أن ذلك مما يهون عليه دعوى النبوة إذا حدثته نفسه بهذا المطمع. فإذا صح أنه جهر بهذه الدعوة وأنه مع هذا كان ينتسب إلى علي رضي الله عنه فلا تناقض في الأمر فربما ادعى أنه الإمام الذي ينتظره القرامطة وطائفة من الشيعة الإمامية وتحل روح الله وأرواح أنبيائه فيه.

واختلطت في ذلك العصر دعوة الإسماعيلية بدعوة القرامطة. وكان يزعم الزاعمون أن هؤلاء الإسماعيلية يدينون بالمانوية أي بالأصلين النور والظلمة وهي النحلة القديمة المشهورة التي ذكرها المتنبي في شعره ولعله لقي كثيراً من أتباعها من المجوس في الكوفة لقربها من البلاد الفارسية. وتعددت في ذلك الحين الدول السياسية في العراق والشام ومصر والمغرب

وما منها إلا من تتلمس لها سنداً من الدين في بث دعوتها وإدحاض حجة خصومها؛ فكثرت الحيل الدينية وشاعت الدسائس والأراجيف وتجاذب الناس آيات الكتاب وأحاديث النبي كل يفسرها بما يمليه عليه الهوى ويوافق الحاجة؛ فيخرجها عن حقيقة معناها ويجعلها وسائل لغايات غير غاياتها. فانظر إلى هذه البيئة التي فشا ضلالها وترادفت فتنها وسقطت هيبة الدين فيها: ألست تراها صالحة لاختمار المطامع وظهور الأدعياء وتربية الخوارج في الدين والسياسة؟

أضف إلى ذلك أن المتنبي لم يكن يصلي ولا يصوم ولا يقرأ القرآن ولا يؤدي زكاة بعد أن أثرى ولم يكن متورعاً وثيق الإيمان بطبيعة مزاجه لأنه صاحب مطامع دنيوية وعقل موكل بالأعمال والوقائع لا بالعقائد والعادات؛ تعرف ذلك من لهجه في شعره بالحكمة العملية ومن قلة توقيره للأنبياء وخفة أسمائهم على لسانه. حتى كان يقرن نفسه بهم كما قال في إحدى قصائده:

ما مقامي بأرض نخلة إلا
كمقام المسيح بين اليهود

وكما قال في القصيدة نفسها:

أنا في أمة تداركها
الله غريب كصالح في ثمود

وليلاحظ أن أرض نخلة التي ذكرها في القصيدة هي قرية لبني كلب الذين يقال إن المتنبي ادعى النبوة فيهم. ومن قلة توقيره لحرمة الدين وخفة ذكر الأنبياء على لسانه أن يقول كما قال في مدح سيف الدولة:

إن كـان مـثـلـك كـان أو هـو كـائـن

فـبـرئـت حـيـنـئـذ مــن الإســـلام

أو كما قال في ابن زريق الطرموسي:

لـو كـان ذو الـقـرنـين أعـمـل رأيــه

لـمـا أتــى الـظـلـمـات صـرن شـمـوسـاً

أو كـان صـادف رأس عـازر رأسـه

في يــوم مـعـركـة لأعـيـي عـيـسـى

أو كـان لـج الـبـحـر مـثـل يـمـيـنـه

مـا انـشـق حـتـى جـاز فـيـه مـوسـى

أو كما قال في بدر بن عمار:

لو كان لفظك فيهم ما أنـزل الفر

قـــــان والـــتـــوارة والإنجـــيـــلا

فلـو كان يستشعر قلبه للدين رهبة ولمقـام الأنبياء حرمة لما جرى لسانه بهذا الغلو الشنيع الذي لا يسوغه دين ولا عقل ولا خيال صحيح.

ثـم أضف إلى هـذا وذاك أنه نظر في كتب الفلاسفـة واستعرض بعض آرائهـم وشكوكهـم كما يفهـم من كثرة مـا اقتبس من معـاني أرسطو ومن تـردد عبارات الفلاسفة وأساليب المناطقة في شعره؛ وكفى دليلاً على شيوع الاطـلاع على الفلسفـة اليونانية في عصـره أنه عصـر الفارابي الذي لقب بالمعلم الثاني لكـثرة ما لخص وشرح من كتب أرسطو وأفلاطون وغيرهما. فعلـق بنفس المتنبي من هذه الفلسفـة أثر واعتراه شك وظهر ذلك في بعض شعره؛ فلا يسلم من الشك قوله في النفس:

وقيل تخلص نفس المرء سالمة
وقيل تشرك جسم المرء في العطب
ومن تفكر في الدنيا ومهجته
إقامة الفكر بين العجز والتعب

أو قوله يهجو كافوراً:

إلا فتى يورد الهندي هامته
كيما تزول شكوك الناس والتهم
فإنه حجة يؤذي القلوب بها
من دينه الدهر والتعطيل والقدم

وهذا المعنى منظور فيه بلا ريب إلى قول ابن الرومي في أبي الصقر:

لا بوركت نعمى تسربلها
كم حجة فيها لزنديق

إلا أن ذلك لا ينفي أن الرجل اطلع على ما ينتحله الدهرية والمعطلون وأهل الزندقة فزاد هذا الاطلاع في البعد بينه وبين خشوع اليقين وهيبة الدين.

ولا ننس غيظ المتنبي ممن كان يذكر له دعوة النبوة وسكوته عن الخوض في هذا الحديث ورغبته في دفن الخبر ونسيانه. فربما كان ذلك كأقوى ما تقدم في تعزيز الشبهة عليه.

فعلى هذا لا يكون غريباً من رجل نشأ هذه النشأة في ذلك العصر على هذا الخلق واطلع على ما اطلع عليه المتنبي وشاهد من حوادث الأيام ما شاهده أن يطمع في المجد من طريق الدين. ذلك ليس بغريب، ولكن هل حصل؟ وهل فعل الرجل ذلك الشيء الذي لا يستغرب منه فادعى النبوة

وجهـر الدعوة؟ أما هذا فلا سبيل إلى البت فيه بـرأي قاطع كما أسلفنا في صـدر المقال ولكننا بين قولين: أرجحهما أنه فعل وادعى والمرجوح منهما أن الرجل نبز بهذا النبز؛ ولكن لا من النبوة كما روى المعري في رسالة الغفران فهـذا غير معقول وإنما الأقـرب إلى العقل أنه نبز بـه لتشبهه بالأنبياء كما مـر بك. وكثيراً مـا أطلق العرب الأنباز والألقاب لأهـون من هذه الأسباب. علـى أني أرجح القول الأول ترجيحاً قويـاً حتى أكاد أرفض الاحتمال الثاني لأول نظـرة. فقد ثبت أن الرجـل حبس. فإذا كان حبسه في فتنة أثارها فقد بقـي على الذين يجزمون ببراءته من دعوى النبوة أن يبينوا لنا كيف أطاعه بنـو كلـب وكيف استطاع هـو أن يحركهم إلى الفتنة بغـير الشعوذة والحيلة الدينيـة: أكان مـن زعمائهـم أم كان مـن ذوي الكلمة المسموعـة في قبائل العـرب جميعـاً أم كان بنـو كلب عمياً عـن الفتنة حتى جـاء المتنبي الطارق الغريب فهداهم إليها.

ولع المتنبي بالتصغير (1)

ممـا لوحـظ على المتنبـي ولعه بالتصغـير في شعره إلى حـد لم يرو عن شاعـر غـيره وقد ذكر ذلك ابـن القارح في رسالته إلى المعـري فأجابه هذا بقولـه: (كان الرجل مولعاً بالتصغـير لا يقنع منه بجلسة المغير.. ولا ملامة عليـه إنما هي عادة صارت كالطبـع تغتفر مع المحاسن) وأصاب المعري فلا ملامة في مثل هذا وإنما هي سمات ولوازم يختلف فيها شاعر من شاعر كما تختلف الوجوه بالشامات والحلل بالشيات ولا شك أنها عادة كما قال المعري ولكن أي عادة هي؟ أمن عادات اللفظ أم من ضرورات الوزن أم من عبثات اللسان؟ لا، ولكنها فيما نظن عادة في الطبع والخلق وما صارت كالطبع كما قـال المعري إلا لأنها من الطبع وفيها ترجمة عنـه ومجاراة لنوازعه. وإليك تفصيل هذا الإجمال:

كان المتنبـي يستعظم نفسه على الشعر أو على التكسب بالمدائح والزلفى من الملوك والأمراء، وكان يرى أنه خلق لما هو أجل وأرفع من ذلك وهو الملك والقيـادة، فلا يبالي أن يطول على ذوي السلطان بهذا الاعتقاد في قصائده التـي يمدحهم بها كما قـال في تهنئة كافور بدار بناهـا فوضع نفسه موضع الند الذي يهنئه تهنئة النظير للنظير:

إنمـــا الـتـهـنـئـات لـلأكـفـاء
ولمـــن يـــدّنـــى مـــن الـبـعـداء

ثم كشف هذا المطلع ووضحه في ختام القصيدة فقال:

وفـــؤادي مـــن المـلـوك وإن كـا
ن لـسـاني يـــرى مـــن الـشـعـراء

---

(1) البلاغ في 10 ديسمبر سنة 1923.

وكان يؤنب نفسه كلما آنس منها ركوناً إلى حياة الدعة واطمئناناً إلى مقامه بين حاشية الأمراء وأتباعهم المحسوبين عليهم المتكلين على عطاياهم؛ فيحفزها وينحيها عن هذا المقام ويذكرها ما أعدت له من المجد والعظمة في اعتقاده فيقول معاتباً لها غاضباً عليها:

إلى كم ذا التخلف والتواني
وكم هذا التمادي في التمادي
وشغل النفس عن طلب المعالي
ببيع الشعر في سوق الكساد
وما ماضي الشباب بمسترد
ولا يوم يمر بمستعاد

والحقيقة أن المتنبي جهل نفسه ولم يكن صادق النظر في أمله فأضله الأمل الكاذب عن كنه قدرته وطبيعة عظمته؛ وأحس من نفسه السمو والنبالة فظن أن السمو لا يكون إلا بين المواكب والمقانب وأن النبالة لا تصح إلا لذي تاج وصولجان وعرش وإيوان، وسيف يضرب الأعناق ورمح يرتوي بالدماء. وقد كان الحال كذلك في عصره وكان هذا مقياس المجد الذي لا مقياس غيره. فطلب الرجل الملك جادًّا في طلبه وجعل الشعر آلته ريثما يبلغه فبقيت الآلة الموقوتة وذهبت الغاية المطلوبة! وظل يسعى طول حياته إلى شيء وأراد الله به شيئاً آخر فأحسن الله إليه من حيث أراد هو أن يسيء إلى نفسه، وفرح محبوه بعد موته من حيث شمت به الأعداء في حياته. فهو اليوم أظفر ما يكون خائباً وأخيب ما يكون ظافراً. ليس بملك ولا أمير ولا قائد ولا صاحب جاه ولكنه فخر العرب وترجمان حكمتهم والرجل الفرد الذي نظم في ديوان واحد ما نثرته الحياة في سائر دواوين التجارب والعظات، فكان

كلامها كلامه وحقائقها حقائقه وساغ له أن يحتجن لنفسه ما هو من حصة الناس جميعاً أو حصة العرب من تجارب الحياة ووقائع الأيام، إن استكثرنا نصيب الإنسانية كلها على رجل واحد. فأي كلام أمير من الأمراء أو عاهل من العواهل كانت له هذه الرعاية والصيانة؟ وأي كلمة مسموعة تتخطى الأيام والقرون وتسمع من وراء القصر والقبر كما تسمع كلمات المتنبي صاحب هذه البضاعة الكاسدة وذلك الطامع الذي كان يعد قنوعه بتجارة الكلام وعكوفه على قرض الشعر تخلفا وتوانيا؟ هذا هو الفخر الذي ضل عنه المتنبي واستصغره ولو عاد اليوم ليختار حظه من الدنيا لما لام نفسه على الرضا به ولطلبه أشد الطلب واستصغر غيره من الحظوظ ليظفر به، وما هو بمسرف إن باع أكبر مملكة من ممالك عصره واشتراه!

فلحسن حظ المتنبي أن (رياحه أتت بما لا تشتهيه سفنه) ولحسن حظ العرب أن هذه السفن جنحت بالمتنبي إلى البر الذي استقر عليه. وإلا فماذا كان يفيدهم أن تصل به إلى سلم العرش أو ساحل الغنى؟ أفكان يضيرهم أن ينقص ملوكهم ملكاً يحذف من سجل فرسانهم اسم فارس؟ كلا ولكن قد كان يضير آدابهم –ولا جدال– أن يسقط من بينها ديوان المتنبي وأن ينقص من عداد شعرائهم هذا الشاعر العظيم القليل النظير.

ولكن لماذا ظن المتنبي بنفسه ذلك الظن وثبت عليه طول حياته وأبى إلا أن يشرئب إلى الملك والولاية وما هو من أهلهما ولا ممن ساعفتهم المقادير بذرائعهما؟ لماذا لم يخطر له غير هذا الخاطر ولم يخدع من غير هذا الجانب؟ سؤال لابد من الجواب عليه.

وجوابه أن الرجل كان له نصيب من العظمة التي كان يصبوا إليها وسهم من الأعمال الدنيوية التي كان يأخذ نفسه بها ويروضها عليها. فلم تكن

النسبــة بينــه وبينها بعيدة كل البعد ولم يكن دعيًّــا فيها من كل وجه؛ بيد أنه كان شريــكاً في تلك العظمة الدنيويــة والأخلاق العملية في كل ما هو من باب الشعــور والملاحظــة ولم يكن شريكاً في كل ما هو من بــاب الإنجاز والتنفيذ. كان يشعر شعور عظماء الأعمال ويقيس الأمور بمقاييسهم ويلزم نفسه الجد الــذي يلتزمونه في حركاتهــم وسكناتهم وتســاوره المطامع التــي تساورهم، ولكنــه لا يتمــم الأمور كمــا يتممونهــا، ولا يسوس الحوادث كمــا يسوسونها، وكان يدرك محاسن الناس ومساويهم وينفذ ببصرهم إلى خبايا ضمائرهم وبواعــث أعمالهم وذبذبة نياتهم ولكنه لا يفري فريهم ولا يحسن أن يستفيد مــن تلك الأخلاق التــي يعرفها بالنظر حق المعرفــة ولا أن يأخذها من حيث ينبغي أن تؤخذ فيعمل في الفرصة الملائمة ما ينبغي أن يعمل.

فمــن هنا كان المتنبي شاعر التجارب والحكم ولم يكن عاملها ومنفذها. ولو أتيح له أن يخرج آماله وآراءه أفعالاً وحوادث لما استطاع أن يخرجها أقوالاً وعبراً لأن طالب المجد المخلوق للنجاح المهيأ للعمل يصنع التجارب ولا يقولها ويمشــي الطريــق إلى الغايــة ولا يترسم خطاهــا ويقيس أبعادهــا، والمجرب الناطــق بالحكمة هو الذي يجلس ليمتحن قواه بعد كل صدمة لا الذي ينهض تــوَّاً ليستأنف الوثبة دون أن يحس في قوته موضــع ألم يضطره إلى امتحانها وتفقد حالها. فكلما عجم عوده زادت حكمته وكلما فعل ذلك دل على أن هذا العــود خلــق للاختبار والجس لا ليضرب ضربــاً دراكاً مفلحاً، ولا ليكون أداة للعمــل الــذي يراد منه. فلابد مــن الاختيار بين الحكمــة الخرساء والحكمة الناطقة. فما رأينا أحداً جمع بينهما إلا جارت إحداهما على الأخرى.

وخلاصــة القول إن المتنبــي كان مطبوعاً على غرار رجــال المطامع ولكن في داخــل نفســه لا في ظاهر عمله؛ كان له في خلقه وتفكــيره استعداد عظماء

الأعمـــال ولكن بغـــير أداة العظمة. فخرجت عظمته هـــذه في عالم الفنون ولم تخـــرج في عالم الحـــوادث. وأظهر مظاهـــر شعوره بالعظمـــة في سمات شعره المبالغة في التهويل والتضخيم من جهة. وهذا الولع بالتصغير من جهة أخرى.

انظر مثلاً إلى قوله في وصف جيش:

خميس بشرق الأرض والغرب زحفه
وفي أذن الجـــوزاء منـــه زمـــازم

أو قوله في وصف أسد:

وقـعـت عـلـى الأردن مـنـه بلية
نـضـدت بـهـا هـام الـرفـاق تلولا
ورد إذا ورد الـبـحـيرة شـاربـا
ورد الـــفـــرات زئـــيره والـنـيـلا

أو قوله في البحيرة:

والمـــوج مـثـل الـفـحـول مـزبـدة
يـــهـــدر فـيـهـا ومـــا بـــهـــا قـطـم
كـأنـهـا والـــريـــاح تـضـربـهـا
جـيـشـــا وغـــى هـــازم ومـنـهـزم

أو قوله في المجد:

ولا تحـسـبن المـجـد زقـــا وقـيـنـة
فما المجد إلا السيف والفتكة البكر
وتضـريـب أعـنـاق الملوك وأن ترى
لك الهبوات السود والعسكر المجر

وتـركـك في الـدنـيـا دويـا كـأنمـا
تـداول سـمـع المـرء أنمـلـه العشـر

وقوله في مدح عضد الدولة:

أبـا شـجـاع بـفـارس عضـد الـدو
لـــة قـنـا خـســرو شـهـنـشـاهـا
تجـمـعـت فـــي فـــؤاده هـمـم
مـــلء فـــؤاد الـــزمـــان إحـــداهـــا

ألا تـرى فيه التحـرك لمناظر الفخامـة والروعة باديـاً والإعجاب بأبهة العظمـة وشـارة الصولة مجسمـاً والتشدق بطنـين الألقـاب وخيلاء الملك مسموعـاً مضخماً؟ ولكنك بعد لا تحس منه إلا ذوقاً في التهويل واستضخام العظائـم كذوق المصور الذي يقف أمام البحـر الخضم المزبد فيصوره لك رائعاً مهولاً كما راعه وأفعم بالهول حسه ومخيلته.

اعكـس هذه الصورة بعـد هذا أو اقلب المجهر المكـبر وانظر في الناحية الأخـرى: مـاذا تـرى؟ ترى صـوراً صغـيرة ضئيلـة لا تدري كيـف تبالغ في تصغيرهـا وتهوين شأنها. ترى شعـور التفخيم قد انقلب إلى شعور بالتأفف والاشمئـزاز. أو أنت ترى المتنبي ذلك الذي ملئ أمام العظمة روعة وتوقيراً قـد نظر في المجهر من ناحيته الأخـرى فملئ أمام الضؤولة تقززاً وتحقيراً. تـرى ذلك الشعور بأبهة العظمة وفخامة القوة في نفس رجل قد انطوى على شوق للمجد لا تشتفي لوعته وحنق على الدنيا لا تنفثئ وقدته.

وغـيـظ مـن الأيـام كالـنـار في الحشا
ولـكـنـه غـيـظ الأســـير مـــن الـقـد

فـإذا ازدرى شيئاً صئيـلاً أو رجلاً حقيراً فذلـك ازدراء يشوبه الضغن ويضاعفـه ظل العظمـة الملقى عليه، فإذا الشيء شـويء وإذا الرجل رجيل، وإذا عـادة المبالغة في الاستصغار موصولة بعادة المبالغة في التفخيم، أو هي هـي ولكن تختلـف ناحية النظر طـرداً وعكساً على حسـب اختلاف الشيء المنظـور إليه. وأكثر ما يُرى المتنبي (مُصَغّراً) حـين يهجو مغيظاً محنقاً أو يستخف متعالياً محتقراً كما يقول في كافور:

أولى اللئام (كويفير) بمعذرة
في كل لؤم وبعض العذر تفنيد

أو كما يقول فيه أيضاً:

ونـام (الخـويـدم) عـن ليلنا
وقـد نـام قبـل عـمـى لا كـرى

أو يقول فيه:

نويبية لم تدر أن بنيَها النـ
ويبي دون الناس يعبد في مصرا

أو يقول:

أخـذت بمـدحـه فـرأيـت لـهـواً
مـقـالي (لـلأحـيـمـق) يـا لئيم

أو يقول هاجياً:

أتـرى القيادة في سواك تكسبا
يـا بـن الأعـيَر وهـي فيك تكرم

وحين يقول في الشعراء الذين يزاحمونه:

أفي كل يوم تحت ضبني (شويعر)
ضعيف يقاويني قصير يطاول

أو في أهل زمانه:

أذم إلى هذا الزمان (أهيله)
فأعلمهم فدم وأحزمهم وغد

وفيهم أيضاً:

من لي بفهم (أهيل) عصر يدعي
أن نحسب الهندي فيهم باقل

أو في احتقار قوم كبني كلاب أن يسموا إلى مرتبة الملك والمقابلة بين حالهم وما تقتضيه الدولة من الفخار والتأثيل والمنعة:

أرادت كلاب أن تفوز بدولة
لمن تركت رعي (الشويهات) والإبل

أو في قوله يذم ليلة أبرمته وثقلت عليه:

أحاد أم سداس في أحاد
(لييلتنا) المنوطة بالتنادي

وتعم هذه العادة في تعبيره عما يستصغره في غير هذا المعنى كما في قوله:

لا يحرم البعد أهل البعد نائله
وغير عاجزة عنه (الأطيفال)

أو كما في قوله:

وأرهــقــت الــعــذارى مــردفـات

وأوطـئـت (الأصـيـبـيـة) الـصـغـار

وهــو إذا لم يصغر المهجور باللفـظ صغره بالمعنى؛ فـكان أعداؤه اللئام عنده شيئاً (قليلاً) كما قال:

يــؤذي الـقـلـيـل مـن الـلـئـام بطبعه

مـن لا يُـقِـل كـمـا يُـقِـل ويـلـؤم

وقـد يلعب بهذا الإحساس الماثل في نفسه على الـدوام لعب المرء بعادة مغروسة فيه فيتخذ منه نكتة نحوية كقوله على ذكر ابني عضد الدولة:

وكـــان ابـــنـــا عـــدو كـــاثـــراه

لــه يــاءي حــروف (أنـيـســيـان)

يريـد أن يقـول: إذا كاثر العدو عضـد الدولة بابنـين كابنيه فجعل الله ابنــي العدو كياءين تضافان إلى كلمة (إنســان) فتزيدانه في عدد الحروف وتنقصانه في القدر؛ وهذا غير غريب من رجل شديد الإحساس (بالصغر) واعتاد التصغير باللفظ وعرف عنه إدمان الاطلاع على كتب النحو.

ولــو شئنا لقلنا إن شعر المتنبــي كله مشغول بالتعبير عن شعوره بالعظمة ذلك الشعور الــذي استحوذ على مجامع قلبه. فكل قصائده تفخيم لشعائر المجــد وفخــر بالهمة التــي تدفعه إلى تسنمــه والمقام الــذي كان يحل نفسه فيــه. فأمــا فخره فظاهر فيه هذا النزوع وأما مدحــه فما هو إلا فخر بكاف الخطاب؛ لأنــه كان يثني على ممدوحه بما يريده لنفسه ويحسه من صفاته وربمــا نفس على الأمراء مدحه الخالص فيشركهم فيه ويعطي نفسه قسطاً منــه لا يقل عن قسط ممدوحه، وأما هجاؤه فهــو فخر مقلوب إذ كان يهجو أعـداءه بضد ما يفخر به أو يمدح به أولياءه فيصح أن يقال إن شعر المتنبي

كلـه من باب واحد هـو باب الفخر، اللهـم إلا أن يكون غـزلاً أو وصفاً؛ وقل أن يكـون شعره في الغزل والوصف مقصـوداً لذاته وإنما هو غرض يمهد به إلـى غيره من المقاصد. بل هو لا ينسى عظمة شأنه حتى في غزله؛ أليس هو القائل:

وصـلـيـنـا نـصـلـك في هــذه الـد

نـيـا فـــإن الـمـقـام فـيـهـا قـلـيـل!!

شهرة المتنبي (1)

رزق المتنبـي من الشهـرة واشتغال الناس بأمره حظّاً لم يرزقه أحد قبله ولا بعـده من شعراء العرب. رزقه في حياته وبعد مماته؛ فأما في حياته فقد سار شعره كل مسير ورويت قصائده في كل أرض فيها لافظ بالعربية واشتد التعصـب له والتعصب عليه بين المتأدبين وغيرهم حتى بلغ الأمر بالفريقين حد الهوس والجنون. قال بعض أصحاب ابن العميد: (دخلت عليه يوماً قبل أن يتصـل به المتنبي فوجدته واجماً وكانت قد ماتت أخته من قريب فظننته وَاجِـداً لأجلها فقلت لا يحزن الله الوزير فما الخـبر؟ قال إنه ليغيظني أمر هذا المتنبي واجتهادي في أن أخمل ذكره! فقد ورد عليَّ نيف وستون كتاباً في التعزية ما منها إلا وقد صدر بقوله:

طوى الجزيرة حتى جاءني خبر
فزعت فيه بآمالي إلى الكذب
حتى إذا لم يدع لي صدقه أملا
شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي

فكيـف السبيـل إلى إخمال ذكـره! فقلت له: القدر لا يغالـب! الرجل ذو حظ في إشاعة الذكر واشتهار الاسم، فالأولى ألا تشغل فكرك بهذا الأمر).

وليلاحظ أن المتنبي نظم القصيدة التي منها البيتان في سنة اثنتين وخمسين وثـلاث مئة وأنه اتصل بابن العميد في أوائل سنة أربع وخمسين وكانت وفاة أخت ابن العميد قبل ذلك بأشهر؛ فكأن القصيدة جابت الأقطار العربية في نحو سنة واحدة أو أقل.

(1) البلاغ في 19 ديسمبر سنة 1923.

وكان رجل من بغداد كلما وصل إلى بلد سمع به ذكر المتنبي رحل عنه حتى إذا وصل إلى أقصى بلاد الترك سأل عن المتنبي فلم يعرفوه فتوطنه. فلما كان يوم الجمعة ذهب إلى الجامع فسمع الخطيب ينشد بعد ذكر أسماء الله الحسنى قول أبي الطيب في عضد الدولة:

أسامياً لم تزده معرفة

وإنما لذة ذكرناها

فعاد إلى بغداد.

فأنت ترى أن شهرة هذا الرجل في عصره قد صارت كالقدر الذي لا يغالب ولا تنجع فيه حيلة غير التسليم على رغم والصبر على مضض؛ وقد انبسطت له دولة في الأدب لا يكون الذي يحاول الخروج منها إلا كمن يحاول الخروج من أرض ربه وسمائه! فلن يستجير الآبق منها بمعتصم ولن يعيذه من النظر إليها عمى ولا من سماع دويها صمم. وهو الذي قال:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي

وأسمعت كلماتي من به صمم

وهو القائل:

وما الدهر إلا من رواة قصائدي

إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشداً

ولعمري أنه لفتح في الأدب لم يسمع بمثله في فتوح شعرائنا العرب من أقدمين أو محدثين؛ وملك شمل رقعة العربية في عهد تنازع فيه هذه الرقعة عشرات الولاة والمالكين. أما بعد الممات فقد ذهب المختلف فيه وبقي الخلاف على أشده، أغرم الناس بديوان المتنبي فتناولوه حفظاً ونقلاً وأمعنوا فيه تقريظاً ونقداً. فمن شارح له ومن منقب عن سرقاته

ومن ملتمس له العذر ومن مشدد عليه النكير؛ حتى صار للمتنبي وحده أدب خاص قائم بنفسه في ديوان آداب العرب وكتب عنه ما يوازي كل ما كتب عن شعرائهم في عصر كامل من عصورهم. ولأمر لقي الرجل هذا الحظ من الشهرة الواسعة التي لا مثيل لها، فما هو هذا الأمر؟ ألأنه شاعر عظيم؟! لا شك عندنا في عظمته الشعرية ولكن كم من شاعر عظيم غيره عاش ومات ولم يشعر به أحد ولم يزل خامل الذكر مغمور الشعر حتى قيضت له الأيام من ينصفه وينبه الناس إلى مكانه؟ وكم من شويعر حقير ذاعت له شهرة لم يصبها معاصروه ممن هم أجود منه شعراً وأرفع في الأدب مقاماً ثم نسيها الناس فواراها الخمول ودفنها في قبر لا نشور منه؟ فالعظمة سبب من أسباب شهرة المتنبي وسيرورة كلامه بلا ريب ولكنها ليست بالسبب الأول الأقوى ولا هي مما ينيل الشهرة في كل حال ولابد من سبب آخر هو السبب الأقوى والمنبه الأكبر إلى جدارة تلك العظمة ورجاحة ذلك الشعر فما هو؟ هو الحسد الذي جنى على الرجل وأجناه؟

نعم هو الحسد ناشر كل فضيلة مطوية كما قال أبو تمام في بيتيه الصادقين البليغين اللذين سارا على كل لسان. هو ناشر فضيلة المتنبي ومفشي ما في قريحته من طيب بما أشعل فيها من نار. هو المحنة التي عرفها المتنبي فشكاها مر الشكوى والنعمة التي لم يعرفها ففاته أن يشكرها ويشيد بفضلها. وحسبك أن تتصفح ديوانه فتعرف من تكرار ذكر الحسد فيه أي عارك عرك نفسه من حسد الحساد وأي حيز شغله هذا الشاغل من تلك النفس المعذبة بمناهضة الزمن وخيبة الأمل، وأن تعيش بين أعداء لها ما من صداقتهم بدّ وأن يضن عليها الزمن حتى بالعدو المداجي بعد إذ قنعت من الصداقة بالابتسام وشكت في كل من تصطفيه لأنه بعض الأنام؛

فلا تكاد تخلو قصيدة للمتنبي من ذكر الحسد بلفظه أو بمعناه ومن الإيماء تارة إلى حساد ممدوحيه وتارة أخرى إلى حساده هو. حتى لقد رمى الماء بالحسد والمنافسة حين أحاط بدار سيف الدولة فقال حين مد نهر قويق فقطع الطريق إلى تلك الدار:

يا ماء هل حسدتنا معينه

أم اشتهيت أن ترى قرينه؟!

ورمى البلدان أيضاً بالحسد فقال:

تحاسدت البلدان حتى لو أنها

نفوس لسار الشرق والغرب نحوكا

وهذا لا يكون إلا من اشتغال الذهن بهذا المعنى وسرعة وروده على الخاطر وقرب مأتاه من الخيال. ولا حاجة بنا إلى استقصاء كلامه الذي ورد فيه الحسد فإنه كثير متشابه ولكننا نجتزئ منه ببيت واحد هو قوله:

ماذا لقيت من الدنيا وأعجبه

إني بما أنا باك منه محسود

ثم نجتزئ من تاريخ حياته بشيء واحد هو تسميته ابنه (مُحْسَداً) وما هو من الأسماء المطروقة ولا المحبوبة. فيدلنا لك على ما لقيه الرجل من محنة الحسد ونكاية المنافسين وأنه قد أصابه من هذا الأذى ما لم يصب أحداً من الشعراء الذين كانوا أسعد حظاً منه أو أسوأ حظاً لا ندري.

وإنما مني المتنبي بهذا الحسد الذي خص به من بين كبار شعراء العرب لأنه نشأ في عصر التنافس أو عصر الحسد. فلقد نشأ في عصر كان يتنازع فيه الملك والسمعة دول شتى وقادة كثيرون. وكان في الأندلس بنو أمية وفي المغرب من أفريقية العبيديون، وفي مصر والشام بنو الأخشيد، وفي حلب

والجزيـرة بنو حمدان، وفي العراق بنو بويـه، وفي البحرين وعمان واليمامة القرامطة، وفي خراسان آل سامان، وفي كل مكان من فارس دويلات صغيرات لا تـزال منـذ قيامها إلى أن تتوارى وتندثـر في خصام بينها ولجاج وحروب بالسيـف واللسـان وربما نجم في الدولـة الواحدة عدد من الأمـراء يستأثر كل منهـم بولايـة أو شقة من ولاية متربصـاً بجيرانه متطلعـاً إليهم طامعاً في اغتصـاب أرضهـم محـاذراً أن يغصبـوه أرضه، وما من هـؤلاء الأمراء والقادة كباراً كانوا أم صغاراً إلا من يتسامى للظهور بين أنداده ويستعد للعلو والتفوق على جيرانه. فكلهم ناظر إلى صاحبه كاره لظهوره ورفعته حريص علـى ألا يسبقه غـيره في قنية أو حلية أو عدة مما يتفاخر به الملوك ويتناظر فيـه ذوو السلطان. وهم أحرص ما يكونون على اقتنـاء الوسائط التي يتم بها نشر الدعوة واستفاضة الذكر واكتساب الصيت والحمد.. وبأي واسطة يتـم ذلك إلا أن تكـون لسان شاعر كبير ينظم القصيدة في مدح أمير منهم فيسـير بهـا الرواة في بلاد الأمـراء كافة ويصبح بها ذلـك الأمير ممدوحاً في بـلاد أعدائه معظماً على مسمـع من حساده ونظرائه؟ فإذا ظهر في هذا المجال المزدحم بالمنافسات والمنابذات والدسائس والنكايات شاعر ذو شأن يذكـر كصاحبنا أبـي الطيب فلا غرابـة في أن ينصبّ عليـه كل ما في تلك المنافسـات مـن خيرات وشرور وأن يتجه إليه كل مـا في نفوس أبناء العصر مـن آمال وأحقـاد وأن يشتهر ذكره بالمـدح والقدح وتلتف بـه زوبعة التشيع والمقـت، ومن عرف شيئاً ولو يسيراً من دسائـس الحواشي والبلاطات فقد عـرف كيـف يجوز أن يستفيـد المتنبي في ذلك العصر مـن حيث لا يحتسب وكيـف يجـوز أن تأتيه العداوة مـن حيث لا يقدر. فربمـا كان في بلاط أحد الأمراء فئة من الشعراء والأدباء لا يعرفون المتنبي ولا يحبونه ولكن يدعوهم

حقد بعضهم على بعض إلى التنويه بقدره والترنم بشعره والتطوع لنشره والغض من شعر غيره، أو يكون بين الأمراء والرؤساء من يتوقع أن يترفع المتنبي عن مدحه ومساواته بأمثاله فيبدأه بالعداوة ويتحامل عليه بالذم قبل أن يرى منه ما يستحق عداوته وذمه. وقد يسوء الأمراء ألا يجدوا ضريبه في بلادهم فيبغضونه ويغرون به السفهاء أو يطمعونهم فيه كما ساء معز الدولة ببغداد في رواية الحاتمي (أن يرد على حضرته رجل صدر عن حضرة عدوه ولم يكن بمملكته أحد يماثله فيما هو فيه) فمثل هذا الشاعر لا يستطيع أن يقول قصيدة إلا أساء بها إلى كثيرين وأحسن بها إلى كثيرين دون أن يقصد إلى الإساءة أو الإحسان، ومثل هذا الشاعر يشترك في رَفْعِ قَدْرِه أنصارُه وأعداؤه ويتبارى في حفظ شعره القريبون منه والبعيدون عنه، ومتى وجد التنافس فقد يتنافس الناس على الزهيد المهين الذي لا قيمة له عند واحد منهم بل قد يتنافسون على لا شيء حباً في الغلب والاستئثار وتلذذاً بالتسابق والنظار. فما بالك بما تكون له قيمة كبيرة في ذاته وبما لا يتم الجمال والرواء للأمير والدولة إلا به؟ لا جرم يكون هذا هدف الرجاء والبغض وملتقى الوصاية والوشاية ويحق له أن يقول:

أعادي على ما يوجب الحب للفتى

وأهدأ والأفكار فيَّ تجول

فمن ثم اعتز المتنبي بشعره فلم يبذله لكل من يطلبه، وتسابق الأمراء إلى طلب المدح منه لئلا يقال إنهم دون من قصدهم بمدحه وكتبوا إليه من كل صوب يستقدمونه فما جاء أحداً منهم إلا مدعواً مكرماً، وبلغ من اهتمام كافور بزيارته أنه كان يسأل عن مسيره ومقامه ويكاتب واليه على دمشق في استزارته ويلح في ذلك والمتنبي لا يجيب. حتى إذا نبت دمشق بأبي الطيب

فسار إلى الرملة فحمل إليه أميرها الحسن بن طغج هدايا نفيسة وخلع عليه وحمله على فرس بموكب ثقيل وقلده سيفاً محلى فكان كافور يقول لأصحابه (أترونه يبلغ الرملة ولا يأتينا) وقد قبل سيف الدولة أن ينشده الشعر جالساً خلافاً لعادة الشعراء في الإنشاد، واحتمل كافور منه أن يخاطبه خطاب الأنداد للأنداد.

وأكثر من ذلك أن طاهراً العلوي (نزل للمتنبي عن سريره والتقاه مسلماً عليه ثم أخذ بيده فأجلسه في المرتبة التي كان فيها وجلس هو بين يديه فتحدث معه طويلاً ثم أنشده أبو الطيب فخلع عليه للوقت خلعاً نفيسة. قال علي بن القاسم كنت حاضراً هذا المجلس فما رأيت ولا سمعت أن شاعراً جلس الممدوح بين يديه مستمعاً لمدحه غير أبي الطيب).

وقد كانوا لا يكتفون بإحراز مدائحه حتى يستطلعوا رأيه فيهم ويستخبروه عما عنده من التبجيل لهم وما يكنه من التفضيل بينهم. فكان عضد الدولة يخلع عليه ويجزل له العطاء ويزيده على أعطية سيف الدولة ثم يبعث إليه بمن يسأله: أين عطاء سيف الدولة من هذا؟! وكان كافور يمتحنه ويدس إليه من يقول له: (لقد طال قيامك في مجلس كافور) يريد أن يعلم ما في نفسه. وما كانوا ليحفلوا برأيه فيهم هذا الحفل لولا التناظر والتناحر ورغبة كل منهم في أن يرى نفسه وأن يراه غيره خيراً من كل حاكم وأمير في زمانه. ولا شك أن هذا الاحتفاء بالمتنبي مما يعظم خطره ويكبر هيبته ومما يزيد عدد حسَّاده والمتتبعين لشعره؛ فكلما احتفل به الأمراء والرؤساء لغط الناس بأمره وكلما لغط الناس بأمره احتفل به الأمراء والرؤساء. وجميع ذلك مُنْتَهٍ إلى نهاية واحدة هي نباهة الشأن وسيرورة الكلام.

إن دسائس البلاط كثيراً ما خلقت شيئاً من لا شيء وأرّثت نيران الضغائن والمشاحنات في غير موجب للضغينة والشحناء. وإذا تناولت هذه الدسائس خلافاً على فكرة في الآداب أو الفنون فغير بعيد أن تجمع فيه كل ما تَشَعَّب من الخلافات على شؤون الملك والسياسة ومآرب الأفراد والأحزاب، وأن تحول إليه كل ما يتفرع من جداول الميول والمشارب في قرارات النفوس، حتى لينسى الناس أنهم مختلفون على شيء آخر غير هذه الفكرة الأدبية أو الفنية؛ أو يُصْبِغوا كُلَّ ما اختلفوا عليه في الموضوعات الأخرى بلون هذه الفكرة. كما حدث في فرنسا بين الموسيقيين الكبيرين (جلوك) و(بتشيني) حين اشتعلت نار الغيرة بين حليلة الملك وخليلته.

فقد استدعت ماري أنطوانت ملكة فرنسا (جلوك) الألماني واجتبته وأظلته برعايتها وإقبالها فما لبثت مدام دوباري عشيقة الملك أن غارت من ضرتها الشرعية فبحثت عن موسيقي آخر يستظل برعايتها فهديت إلى بتشيني الإيطالي فجاء على جناح السرعة. جاء إلى باريس وأكب على العمل سراً ليفاجئ الناس بآية من آيات فنه فيكون وقع ظهوره أبلغ وأسطع، ولكن احتجابه لم يطل وشاع خبر قدومه فانقسمت العاصمة الظريفة إلى معسكرين نافرين متوثبين ثم احتدم الخصام فتراشق الفريقان بالأهاجي والرسائل والنكات والمغامز وسرى الخلاف إلى كل مكان فدخل فيه العلية والسفلة وتصايح الناس بالمفاضلة بين الموسيقيين الكبيرين فيما يفقهون من فنهما ووصل النزاع إلى الفلاسفة وقادة الأفكار فتشيع دالمبرت ولاهارب ولارمونتل إلى جانب بتشيني، وتشيع روسو وسواردي روليه إلى جانب جلوك. ودام الحال على ذلك برهة ألهت الخاصة والعامة عما بينهم من المنازعات السياسية والدينية. فكانوا لا يسألون عن المرء أمن هذا الحزب

هـو أم من ذاك ومن المؤمنين هو أم من الملحدين؟ ولكنهم يسألون: أهو من شيعـة جلـوك أو من شيعة بتشيني؟ قال فريس المـؤرخ الموسيقي: فكان ربما ترتـب على الجواب تطرق العداء إلـى أبناء البيت الواحد وتفرق الشمل بين أعز الرفاق وأقدم الأصدقاء. وفي أي عهد يحدث هذا؟ في العهد الذي تقبل فيـه فرنسا علـى ثورتها الكبرى وتهتـز فيه أركان عرشها بـزلازل الفوضى المقتربـة وضربات الخسائر السياسية في الشرق والغرب! ولأي شيء يحدث هـذا؟ لأجل التنافس بين حليلة وخليلة في بـلاط واحد!! فما ظنك بمنافسة العشـرات من الأمـراء حولهم المئات من الـوزراء والرؤساء وراءهم الألوف مـن الأشيـاع والتبعاء بينهم من لا يحصـى لهم عدد من الشعـراء والرواة والسامعـين والقراء؟ أكثير على هذا الحريق المضطرم من الفتن والعداوات السياسيـة والأدبية وما يتخللها من الحفائظ الجنسيـة والدينية أن يكشف للناس عن مكان شاعر واحد من أعلام القريض والبيان؟

فإلـى ذلك يعود جانب كبـير من شهرة المتنبي وعنايـة الناس به، وهذا مـا استفاده اسمه من حالة عصره، أما ما استفاده من شعره وشخصه وهو جانب آخر غير يسير فسنكتب عنه في المقال التالي.

شهرة المتنبي – حدّ الشاعر العظيم

استفـادت شهـرة المتنبي من عصـره وذلك ما بيناه في المقـال السابق. واستفـادت مـن شعره ومن شخصـه وهذا ما سنجمل الـكلام عليه في هذا المقال.

كان المتنبي شاعراً من شعراء العرب العظام، وحدُّ الشاعر العظيم عندي هـو أن تتجلـى في شعره صورة كاملـة للطبيعة بجمالهـا وجلالها وعلانيتها وإسرارهـا، أو أن يستخلص من مجموعة كلامـه فلسفة للحياة ومذهب في حقائقها وفروضها أياً كان هذا المذهب وأياً كانت الغاية الملحوظة فيه.

فـإذا جمع الشاعر بين الأمرين – أي إذا رسم لنا صورة كاملة للطبيعة وشـرع لنـا مذهباً خاصاً في الحياة فذلك هو الشاعـر الأعظم الذي ندر أن يجـود الزمان بمثله في الدهور المتطاولة والأجيال المتباعدة والذي لا تنطبق علـى عد أقرانـه في جميع الأمم أصابـع اليدين، لأنه يجمـع في نفسه قدرة جسيمة نادرة لا تبذل جزافاً ولا تفوقها على الإطلاق قدرة يعطاها إنسان.

ذلـك أن نفسـ الشاعر العظيـم كتلك المصـورة الفلكية التـي يرصدها الفلكيون لالتقاط أشعة النور من أبعد السموات وأظلم الآفاق: نفس صحيحة الإحساسـ قوية لا يغيب عنها قريـب ولا بعيد ولا ظاهر ولا باطن مما يحيط بها من مشاهد الحس والخيال، وليس يفوتها علم شيء دق أو جل مما توحي به الطبيعـة والحياة من الحقائق والأسرار؛ فإذا اتجـه الشاعر العظيم إلى الطبيعة فهو الذي يسمعك الخليقة الأولى منقولة في لفظ والسموات والأرضين منظومـة في لحن؛ ويبثك من هذه الدنيـا الإلهية نبضات أغوارها وصدحات أفلاكهـا وما توسوس به ومـا تزمجر من نغمات رضاهـا وغضبها وطلاسم

صلواتهـا وتعاويذها، يستوعب ذلك كله ألغازاً مبهمـة ثم يرسله من خاطره المتوهج الصهار أرواحاً هائمة وشياطين حائمة وعرائس ترقص وطيراً تغرد وزهـراً يتضـوع ومعاني يمتلئ بها جـو هذه الدنيا حياة. وركـزاً ويزدحم بها جـو النفس شعوراً وأمـلاً. أو هو يكتب لك (بهيروغليفيـة) الإلهام كل ما في معجم الطبيعة من الكلمات والرموز وكل ما يجرى به لسانها المورى الملغز من الأسماء والحـروف، فإذا الطبيعة بقضها وقضيضهـا مجموعة لديك، وإذا بـك أنت تعيش في كل ناطقة وصامتة وكل متحركـة وساكنة من ذلك العالم السرمدي الرحيب. تُحَوِّله كلَّه إلى جزءٍ من حياتك أو تجعل حياتك ممدودة مبسوطـة على كل جزء منه. فإن أردت أن تعرف معنى هذا باختصار فاعلم أنه مضاعفة الحيـاة وتوسيع جوانب النفس حتى تعود الحياة الواحدة أبرك وأمتع من ألف حياة متصلة، وحتى يعود الحائن الفاني خالداً في بعض أيامه لأنه يشعر بهذا الكون الخالد شعور الخالدين؛ واعلم أنه ليس في وسع إنسان أن يطلب من الدنيا أجل وأغلى من هذا المطلب الذي قل أن ينال.

وإذا اتجـه الشاعـر العظيم إلـى الحيـاة وانصرفت نفسـه إلى ما بين الأحيـاء مـن العواطـف والدوافع والصـلات والفواصل فهو الـذي يسمعك أصـداء النفسـ الآدمية في جهرهـا ونجواها وفي شوقهـا وانقباضها وحين ترتفـع في معارج الخير وحين تـتردى في مهابط الشر، ويـردد لك ما تعتلج بـه من الآلام وما تحلم بـه من الآمال، ويترجم ألغازهـا وكناياتها فإذا هي كلمات صريحة مأنوسة، ويجمع أشتات هواجسها وأعشار تجاربها فإذا هي قوالـب صحيحة ملموسة. فأنت تقـول إذ تراها نعم هذه هي النفس الآدمية بعينهـا وتصيـح يا عجبـاً! إنها لهي هي الحيـاة كما عهدتهـا.. كأنها كانت ضائعـة فُرُدَّتْ إليك أو كأنهـا كانت متفرقة موزعـة فَجُمِعَتْ في قالب واحد

لديك؛ أو كأنها كانت طائرة فوقعت بين يديك، فأنت تطمئن حين تقرأ شعر هذا الشاعر على محصولك من التجارب وتأمن على ذخيرتك من المألوفات والعجائب. ومعنى ذلك باختصار أيضاً أن في هذا الشعر توكيداً للحياة وتقريراً لها حتى يعود آبدها مشكولاً مستقراً وعارضها مقيماً لازباً، وحتى تكون مستريحة بعد القلق واثقة بعد الارتياب محوطة بالرفاق والأصحاب بعد العزلة والاغتراب.

ومن الشعراء من يطربك متغزلاً أو من يعجبك واصفاً أو من يشجوك شاكياً أو راثياً أو من تستمع له فتحلو لك نغمته في بعض مذاهبه ولكنك لا تلقى عنده مستمعاً في غير الباب الذي تستحسنه منه. فهؤلاء الشعراء تستريح النفس إليهم في حالة من حالاتها وتتسلى بهم في بعض نوباتها، غير أنها لا تشعر بعظمة فيهم حين تنصت إليهم. وهي على حق فيما تراه! فإن الشاعر الذي لا يخاطب النفس إلا من ناحية واحدة كالآلة الموسيقية التي ليس فيها غير فرد وتر، فهي تنطق بصوت واحد من أصوات هذه الحياة ولكنها لا تتسع لتمثيل روايتها الكبرى بأصواتها المنوعة وأصدائها المختلفة المتجاوبة.

***

لم يكن المتنبي ممن شُغِفوا بمحاسن الطبيعة وأسرارها، ولكنه كان ممن يقبلون بجملتهم على جهاد الحياة في وسط المعمعة فيحصون عليها هزائمها وانتصاراتها، ويكتبون لها حسناتها وسيئاتها، وكان الرجل أشبه رجال القول برجال العمل في الخلق والمزاج، فأقبل على الجهاد في عصره عاملاً كما أقبل عليه مترقباً دارساً؛ فأعانه ذلك على تقييد ضوابطه وتعليق شوارده، وأخرج لنا من شعره معرضاً واعياً لكل ما يعتلج بالنفس المجاهدة، وعيبة حاوية لأشكال من الحكم العملية والقواعد المقررة المشاهدة.

وفسح الله مجال العبرة للمتنبي إذ أرسله في ذلك العصر الذي كان بدعاً في عصور الدول العربية: فإنه كان عصر المطامع والشهوات والقلاقل والدعاوى فلذلك لم يترك وديعة نفس ولا دخيلة طبع إلا حفزها واستفزها ورجَّ وعاءَها كما تُرَجُّ القارورة لاختبار ما فيها؛ فأبرزها للعين بصفوها وكدرها. ولقد أفاد ذلك شهرة المتنبي من جهتين؛ أفاده خبرة وعلماً إذ فتح أمامه سفْر الحياة فاقتبس منه ما شاء وأمده بأصول الحكمة العملية فبنى عليها أحسن البناء؛ ثم أفاده رواية وذكراً إذ جعل أهل ذلك العصر الحافل بالحوادث والعبر في حاجة دائمة إلى التأسي والاستشهاد والتمثل بالقول البليغ الموافق للتجربة المطابق للهوى شأن الناس في الميل إلى سماع الحِكَمُ التي تعبر عما في ضمائرهم وتعيد على مسامعهم ما لا يستطيعون أن يبدؤوه من عند أنفسهم؛ فسار شعره على الألسنة ولقي في كل مكان من يؤمن عليه ويجد المناسبة في كل وقت لروايته والتذكير به.

ولو توفرت هذه الفرص لشاعر غير المتنبي لما كان من المحقق أن يصيب شعره هذا الاهتمام الذي أصابه شعر المتنبي؛ ذلك لأن الشاعر يطبع الكلام بطابعه ويعيره من المنزلة بقدر ماله من المنزلة في نفسه؛ فالشاعر الضعيف لا يخرج من قريحته كلاماً قوياً ولو كانت التجارب القوية منه على طرف الثمام، والرجل الذي لا يعبأ بنفسه قل أن يعبأ الناس بكلامه ولو كان من أعلام الكلام. وقد كان المتنبي قوي الطبع فمرق كلامه من قلبه ومن ذهنه مروق السهم النافذ من القوس المتينة، وكان أبي النفس فأكرم مقاله عن المقامات الزرية والمواقف المهينة؛ كانت قوة طبعه عوناً لاعتداده بنفسه وثقته بعظمته، وكان اعتداده بنفسه وثقته بما فيها من العظمة عوناً لقوة طبعه، فأبى أن يسف بأمله حيث يسف غيره وعرف لشعره قدره فعرف

الناس له هذا القدر طائعين أو مكرهين؛ ولما اشترط على سيف الدولة أن ينشده المديح وهو قاعد وألا يكلفه تقبيل الأرض بين يديه نسبوه إلى الجنون..! ولاشك أنه ضرب من الجنون إذا كان العقل والحزم أن يحتال الإنسان لمصلحته بالرفق والملق. ولكن المتنبي لم يكن يشق عليه أن يوصف بهذا الضرب من الجنون على ما يظهر من قوله في أبي شجاع:

وقد يلقبه المجنون حاسده

إذا اختلطن (وبعض العقل عقال)

أناله الشرف الأعلى تقدمه

فما الذي بتوقي ما أتى نالوا؟

فأصر على ترفعه وأنف أن يستكين لعنت الدهر وعثرات الأمل؛ وزاده ترفعاً وأنفة أنه كان يرى الناس حوله صغار النفوس صغار الهمم ويجد نفسه غريباً في أمم كالأنعام وأيام كأيام الفترة بين الرسل:

ودهر ناسه ناس صغار

وإن كانت لهم جثث ضخام

فطمع في الملك والولاية ولم يستكثر على نفسه قدراً كائناً ما كان في عصر تدار فيه لكافور ثلاثة أمصار فسيحات، ويدان فيه لكارميته بإمامة الدين والدنيا..! ومن ذا الذي يخطئه حين يذم دهره مخاطباً كافوراً:

ولله آيات! وليس كهذه،

فإنك يا كافور آيته الكبرى

لعمرك ما دهر به أنت طيب

أيحسبني ذا الدهر أحسبه دهراً؟

وقد أملي للمتنبي في الطمع فوق ما أشرنا إليه أن الأدب كان في عصره، وقبل عصره، مما ينيل مراتب الوزارة ويخول صاحبه مناصب الرئاسة. فلا جنـاح على من كان في أدبه وعلـو همته أن يتبوأ المقاعد التي طمح إليها بعد أن تبوأها من هم أقل منه معرفة وأوضع أملاً. غير أن الرجل نسي أن الأدب وحده لا يغني في هذه المطالب وأن الذين صعدوا على هذا السلم إنما صعدوا بكفـاءة أخـرى غير الأدب أو مـع الأدب، صعدوا بالحيلـة والمراوغة والتأني والمـداراة وما إلى ذلك مما لا يحسنه هو ولا يقدر على مجاراتهم فيه. فلما فشـل مـن حيث نجح من دونه وتخلـف من حيث جلى المتخلفـون وراءه نقم على الزمن نقمة زادته احتقاراً لأهله وتيهاً بنفسه وتمرداً على حظه؛ فغالى بشعره أيما مغالاة وأخرجه العناد في بعض الحالات إلى ما لا يليق بالسداد

***

فاعتـداد المتنبـي بنفسه وظهـور شخصيتـه وقوة طبعه وكـثرة تجاربه وحاجـة الناس إلى الاستشهـاد بأمثاله وحكمه في عصـره وتنافس الأمراء علـى اشتراء مدحه وكثرة حساده هذه هـي الخصائص التي انفرد بجمعها المتنبـي فأشاعت ذكره وحفظت شعره وأنالته مـن المكانة في أدب العرب ما لم ينله شاعر سواه.

فلسفة المتنبي (1)

قلنـا في المقال السابق إن للمتنبي مذهباً خاصاً في الحياة، وقد يستغرب الواقفـون عند الظواهر نسبة الفلسفة إلى شاعر ولو كان من كبار الشعراء، لجهلهـم حقيقة الشعر والفلسفـة معاً وظنهم أن الفلسفـة لا تصدر إلا عن الفكـر وحـده مجـرداً من الخيـال والعاطفـة، وأن الشعر لا يصـدر إلا عن الخيال والعاطفة بحتاً مجردين من الفكر؛ ولقلة تفرقتهم بين الحقائق التي تقـر في الـروع وتنطبع في البصيرة ثم تسلك سبيلها مـن العقل الباطن إلى العقـل الظاهر فـإذا هي موافقة له غير مستعصية علـى براهينه وأنماطه، وبين الحقائق الذهنية الصرف التي يدركها الفكر الظاهر ابتداء كما تدرك المسائل الحسابية والمعلومات الإحصائية؛ وهي مما لا يستجيش إحساساً ولا يحتاج إلى خيال.

والحقيقة أن الفكر والخيال والعاطفة ضرورية كلها للفلسفة والشعر مع اختـلاف في النِسَبِ وَتُغايُر في المقادير؛ فلابـد للفيلسوف الحق من نصيب مـن الخيال والعاطفة ولكنـه دون نصيب الشاعر؛ ولابـد للشاعر الحق من نصيـب من الفكر ولكنـه دون نصيب الفيلسوف، فلا نعلـم فيلسوفاً واحداً حقيقاً بهذا الاسم كان خلواً من السليقة الشعرية، ولا شاعراً واحداً يوصف بالعظمة كان خلواً من الفكر الفلسفي؛ وكيف يتأتى أن تُعَطَّلَ وظيفة الفكر في نفس إنسان كبير القلب متيقظ الخاطر مكتظ الجوانح بالإحساس كالشاعر العظيـم؟ إنمـا المفهوم المعهـود أن شعـراء الأمم الفحول كانـوا من طلائع النهضـة الفكرية ورسل الحقائق والمذاهب في كل عصر نبغوا فيه؛ فمكانهم في تاريـخ تقـدم المعـارف والآراء لا يعفيـه ولا يغض منه مكانهـم في تواريخ

(1) البلاغ في 21 ديسمبر سنة 1923.

الآداب والفنــون، ودعوتهم المقصودة أو اللدنية إلى تصحيح الأذواق وتقويم الأخــلاق لا تضيع سدى في جانــب أناشيدهم الشجيــة ومعانيهم الخيالية؛ هكــذا كان شكسبير شاعراً ناطق الفكر حتــى في أغانيه الغزلية وهكذا كان جيتــي وشيلر وهيني شعراء الألمــان الأدباء الفلاسفة في استعدادهم وسيرة حياتهم وفيما يستقرى من مجموعة أعمالهم؛ وهكذا كان بيرون ووردزورث وسونبرن مــن الشعراء المجاهدين في أغانيهم المغنــين في جهادهم؛ وهكذا كان مــن قبلهم جميعا دانتي اليجييري إمام النهضة الإيطالية بل هكذا كان كل شاعر عظيم في كل لغة وبين كل قبيل.

ونظــرة واحدة في تاريخ آدابنــا العربية تُبَيِّنُ لنا صدق هــذا القول وترد الواقفــين عند الظواهر إلــى رأي أصح وأكمل في فهم المَلَكَة الشعرية وتُعَرَّفُ القرابــة الحميمــة بــين السليقة والبديهــة الموصولة بالفكر، فمــن هم أكبر شعــراء اللغــة العربيــة في رأي الأكثرين مــن النقــاد والقــراء؟ أليسوا هم بشاراً وأبــا نواس ودعبلاً وابن الرومي وأبا تمام والبحتري والمتنبي والمعري والشريــف وبقية هذه الطبقــة؟ فما مزية هؤلاء علــى الشعراء الآخرين من أضراب المجنون وابن أبــي ربيعة وابن مناذر والحسين بن الضحاك وحماد عجــرد وغيرهم ممن حــذا حذوهم وغنى على ليلاهــم؟ أهي قلة الفكر في شعرهــم أم كثرته؟ أهي اقتصارهم على المعاني الغنائية أم طرقهم لأبواب المعــاني المختلفــة وتوفرهم على فنــون القول المتشعبــة؟ في دواوينهم جواب قاطــع علــى هذا؛ وفحواه أنهم فاقــوا أولئك الشعراء بأن كانــوا أوسع منهم جوانــب نفس، وأجمــع منهم لِمَلَكات الشعــر والفلسفة ومواهــب الإحساس والتأمــل، وأنهم أقدر على النظر فيما حولهــم ممن نظروا في ناحية واحدة فحسرت أبصارهم عن غيرها وداروا فيها طول عمرهم لا يتحولون عنها.

والمتنبـي علـى وجـه خاص أولى مـن عامـة شعرائنا (ما عـدا المعري) بالنصيب الأوفى في عالم المذاهب والآراء لأن الحقائق المطبوعة لا تكاد تقر في نفسه حتى يرسلها إلى ذهنه ويكسوها ثياباً من نسجه؛ ويغلب أن يوردها بعـد ذلك مقرونـة بأسبابها معـززة بحججها على نمط لا يفـرق بينه وبين أسلوب الفلاسفة في التدليل إلا طابع السليقة وحرارة العاطفة، فتأمل قوله:

إذا غـامـرت في شـرف مـروم
فـلا تـقنـع بمـا دون الـنـجـوم
فـطـعـم المـوت في أمـر حـقير
كـطـعـم المـوت في أمـر عـظيـم

أو قوله:

إذا أتـت الإسـاءة مـن لئيم
وَلَمْ أَلُمْ المسـيء فمـن ألـومُ؟

أو قوله:

إلـف هـذا الـهـواء أوقـع في الأنـف
ـس أن الحـمـام مـر المـذاق
والأسـى قبـل فـرقـة الـروح عجز
والأسـى لا يـكـون بـعـد الـفـراق

ولا نزيـد علـى هذا فإننا ربما نقلنـا حكم المتنبي بيتاً بيتـاً لو مضينا في السـرد إلـى النهاية فتأمل هـذه الأبيات؛ ألا ترى أنه قـد قرن كل حكم فيها بسببـه أو بتفسـيره وبإقامـة الدليل الذي ينفـي الغرابة عنـه؟ أليس العقل هنـا مساوقاً للطبع متاهباً لتعزيز حكمه وتسويـغ نظره وتمحيض المساعدة الطيعـة السمحة له؟ فمذهب المتنبي في الحياة ثمرة هذا التزاوج بين طبعه

وعقلـه ونتيجـة القدرة علـى استيعاب مؤثـرات الحياة جميعهـا أو هضمها هضمـاً تغتـذي به السليقة والذهـن في وقت معاً؛ وهذه هـي صيغة المذاهب التـي تستنبط من أقوال الشعراء وتحمـل في أطوائها حجة الشعر والفلسفة التي تفتح لها منافذ القلوب والعقول.

***

بعد هذا نسأل ما هو إذن ذلك المذهب الذي ذهب إليه المتنبي في الحياة؟ وينبغـي قبل الشروع في بيان ذلك أن ننبـه إلى الفرق بين الكلام في مصدر الحياة والكلام في سننها وصروفها؛ فأما الكلام في مصدر الحياة فقد كان المتنبـي حكيمـاً في اجتنابه وإغلاق بابـه؛ فأراح نفسه مـن الخلط والخبط والقيـل والقال وطاوع مزاجه العملي فنأى بـه عن الخوض في هذه المتاهات التي لا تفضي إلى طائل ولا يحصل العقل من ورائها على حاصل؛ عالج فتح هـذا الرتاج في صبـاه على جدة من النفـس وفراغ من الوقـت وتعطش إلى الإلمام بكل شيء واستكناه كل سر كما يظهر من قصيدته الميمية التي نظمها في المكتـب فأتعبـه فتحه ثم ما عتم أن مـل هذا البحث الـذي لا تسكن إليه نفسه ولا يستمرئه طبعه فأقلع عنه ونفض يديه منه ولعله أخذ حيناً بمذهب القائلين بأن الإنسان ربيب هذه الأرض ووليد الزمن:

فـهـذه الأرواح مـن جـوه
وهـذه الأجـسـاد مـن تـربـه

ثـم رأى النـاس مختلفـين في هـذه القضيـة لا يتفقـون (إلا على شجب والخلف في الشجب).

فقيل تخلص نفس المرء سالمة
وقيل تشرك جسم المرء في العطب

ومـن تفكر في الدنيا ومهجته
أقامه الفكر بين العجز والتعب

وما له ولهذا الشجب العقيم وهذا التعب البور في نظره؟ فزوى وجهه عن مباحث ما وراء الطبيعة وأبعدها إلى مؤخرة فكره وأبقاها هناك لا يسمح لها بالبروز إلى واعيته والتحرك لإقلاق باله إلا في الفترات القليلة التي يغفى فيها طمعه وتفتر آماله، ثم تعود تواً إلى زاوية سجنها السحيق حيث لا يزعجه اشتجارها ولا يشغله عن دنياه ضجيجها أو سرارها.

كلا، ليس للمتنبي صبر على هذه الفلسفات!.. إنما هو فيلسوف الحياة سننها وصروفها وليس فيلسوف الحياة مصادرها ومصائرها؛ وفلسفته في هذا الصدد بينة صريحة قريبة المنال متفقة الأجزاء لا تعقيد فيها ولا غموض؛ يمكنك تلخيصها في كلمات وجيزة هي: أن الحياة حرب ضروس علاقة الإنسان فيها بالإنسان علاقة المقاتل بالمقاتل، فهو يركب سناناً من صنعه في كل قناة ينبتها الزمان، وما المودة فيها إلا حيلة من حيل الحرب أو هدنة في حومة القتال، فاحذر الناس واستر الحذر! وإياك أن تشكو إلى أحد أو تغرك دمعة باك أو بشاشة مبتسم، إنك إن تَشْكُ إليهم بلواك تكن كالجريح الذي يشكو ألمه إلى الرخم والعقبان، وإن الذي يبكي بين يديك حين تظفر به لن يرحمك غداً حين يظفر بك، والذي يبتسم لك ويبدي مودتك إنما يداري الضعف والكيد بهذه المودة ثم هو إذا تمكن من مقاتلك لن يرثي لضعفك ولن يقيل عثرتك؛ فاعلم أنك تنال بالخوف في الدنيا مالا تنال بالود وأن من أطاق التماس شيء من أشيائها غلاباً واغتصاباً لم يلتمسه سؤالاً.

إنما أنفس الأنيس سباع
يتفارسن جهرة واغتيالا!!

فكن كالموت الذي لا يرثى للدمع ولا يروى من الدم، وَقِفْ وسط هذه المعمعة وقفة من (لا يقتري بلداً إلا على غرر ولا يمر بخلق غير مضطغن) فإنما أنت حيث سرت بين أعداء يترقبون غفلتك ويَتَحيَّنون فرصة ضعفك؛ وماذا يحميك منهم غير الحيلة والبأس؟! وكيف تعيش بينهم بغير العدة والسلاح؟ أتظنك تأوي منهم إلى عدل أو رحم أو تقوى! لا يا صاح! إياك والاتكال على عدل الناس ورحمتهم وتقواهم!! إياك وهذه الغرارة والجهل في معركة الحياة.

فالظلم من شيم النفوس فإن تجد
ذا عفة فلعلة لا يظلم

والأصل في طباع الناس العدوان والغصب ثم جاء الحق والإنصاف خوفاً من عدوان العادين وغصب الغاصبين. والناس يعتدون حتى يُمْنَعوا فيعرفوا بعد المنع ما يجوز لهم وما لا يجوز، وتأتي من ذلك الحدود والحرمات والحقوق. ولكنهم لا يمتنعون بغير مانع ولا يعفون لغير علة.

هذا هو أصل الأخلاق عند المتنبي وهذه هي سنة الحياة في نظره. حرب مستعرة لا راحة فيها ولا أمان. لا رحمة فيها ولا عدل. لا كلمة فيها لغير القوة أو الحيلة التي هي نوع من القوة. حرب قائمة دائمة في السر والعلن وبين الأصحاب والأعداء وفي صفوف الأقوياء والضعفاء. حرب ولكن فيم ينبغي أن تخاض؟ أفي اللذة والسرور؟ أفي العلم والمعرفة؟ أدفاعاً عن النفس وذوداً عن المال؟ كلا لا تخاض في شيء من ذلك، ولكن في طلب العز والقهر والسيادة. أو عملاً (بإرادة القوة) إن شئنا أن نجعل لهذا المذهب القديم صيغة من صيغ البحث الحديث. (والدنيا لمن غلب)؛ وهذه هي شريعة الحياة.

والمتنبي لا يكره اللذة والسرور فهو يشتهيهما ويحض عليهما فيقول في أسلوبه المعتاد من النصيحة المبينة والحكمة المشفوعة بالحجة:

أنــعــم ولــــذ فــلــلأمــور أواخـــــر
أبـــــداً إذا كــانــت لــهــن أوائـــــل
مــا دمــت مــن أرب الحـســان فإنمـا
روق الــشــبــاب عــلــيك ظــل زائــل

غير أنه يطلبهما بشرط؛ لأنه لا يراهما خير ما يطلب في الحياة. يطلبهما بشرط ألا يعرضاه للذل ولا يَصِماه بالدنس:

ولا أقــيــم عــلــى مــــال أذل بــه
ولا ألـــــذ بمـــا عــرضــي بــه درن

بل هو لا يستطيب اللذة التي لا تصحبها الكرامة ولا يجد معها التبجيل:

فمـا مـنـزل الـلـذات عـنـدي بمـنـزل
إذا لم أُبَـــجَّـــلْ عــنــده وأُكْـــــرم

لهـذا لا يستنيم للذة ولا يسلمها زمامــه ولا يعطيها من نفسه غير ساعة ثم يمضي في شأنه الذي عقد العزيمة عليه.

ولـلـخـود مـنـي سـاعـة ثـم بيننـا
فــلاة إلى غــيـر الــلــقــاء تجـاب

وهو لا يجهل ما يبتغي من الدنيا ولا يَخْفَى عليه ما في بعد الهمة من المكاره والعـذاب، وأن السيـادة محفوفة بالمشقـة من كل جانـب، وأن صفو الحياة نصيب العاجزين الغافلين أو الحالمين المتعللين، ينعمون في الشقاوة بجهلهم ويشقى كبار النفوس في النعيم بعقولهم –لا يجهل شيئاً من هذا الذي يُبْتَلى به ذوو الهمم بل يعرفه ويقوله ويكرره كما لم يكرره شاعر قبله ولا بعده؛ غير أنــه مع كل هذا يبتغي المجد ويستقتل في طلبه؛ لا، بل هو يبتغيه ويستقتل فيه لأجـل كل هذا وهو يقفـو أثره حيث كان تلذذاً بالمغامـرة واستخفافاً بالعناء

والنَصَـب. إذ كانت نفسه تستريـح من التعب وتتعب من الراحة وتصح على العدو والإحضار وتفسد على السكون والرقاد. وهو القائل:

ذراني والـفـلاة بـلا دلـيـل
ووجـهـي والـهـجـير بـلا لـثـام
فـإني أسـتـريـح بـذي وهـذا
وأتـعـب بـالإنـاخـة والمـقـام

وصـدق المتنبي فيما افتخر به، ولم يخالـط ولم يبالغ ولا توخى الإغراب في المعنـى فما من شيء في الحقيقة هو أضنى للنفس من قوة محبوسة فيها لا تجـد سبيلها إلى الظهور، وليس أروح لهـا وأجلب لسعادتها من إطلاق ما تحويـه مـن زيادة قوة وإرسـال ما يطمو بها من زاخر عـزم، ولو أصابها في ذلـك ما تتأذى به النفوس وَتُحْرَج له الصدور؛ ومن التعب المسقم ما يعتري الجسوم لتعذر التعب المحبب إلى نفوسها وامتناع الطريق إلى الصراع الذي تهيأت له طبائعها.

فتضوي وتهزل اشتياقاً إلى ما يضوي غيرها ويهزله؛ ويداويها الطب بما لا يشفيها فيحار فيها حيرة طبيب المتنبي الذي قال فيه:

يـقـول لي الـطـبـيـب أكـلـت شـيـئـاً
وداؤك في شـرابـك والـطـعـام
ومـا في طـبـه أني جـواد
أَضَـرَّ بـجـسـمـه طـول الجـمـام

ولـك أن تعـد المتنبي من طلاب اللذة إذا اعتـبرت أنه –كما قال– يجد لذتـه (فيما النفوس تراه غاية الألم) وأنه: (يرى جسمه يكسى شفوفاً تربه فيختـار أن يكسـى دروعاً تهده) ولكننـا حينئذ نقول لغواً وهـذراً أو نحصل

الحاصل ونخلط بين المقاصد حين نقول: (إن النفوس تطلب اللذة) فإن النفس لا يمكن أن تطلب على هذا المعنى شيئاً إلا قيل إنه (لذة)! فيصبح الشيء اللذيذ مرادفاً للشيء المطلوب وليسا هما كذلك. خصوصاً إذا ذكرنا أن النفوس غير مخيرة في كل ما تطلب، وأنها تساق أحياناً إلى ما تعلم فيه حتفها وسقوطها فتنساق إليه على كره منها.

كذلك المال مطلوب في مذهب المتنبي وتدبيره واجب، ورأيه في طلبه كرأيه في اللذة، أي أنه يقدم عليه المجد وينصح بادخاره، لأنه آلة المجد ووسيلته إليه لا لذاته.

فلا مجد في الدنيا لمن قل ماله
ولا مال في الدنيا لمن قل مجده

أما العلم فالمتنبي يطلبه أيضاً ويطري المعرفة ويرفع الحكمة ويقول في بيت واحد:

أعز مكان في الدنى ظهر سابح
وخير جليس في الزمان كتاب

فيخيل إليك أنه يعدل العلم بالسيادة ويضعهما في موضع واحد من الجلالة والوسامة؛ إلا أنك لا تلبث أن تستعرض أقواله الأخرى حتى يلوح لك الموضع الذي يضع فيه العلم والحكمة وترى أنه لا يجعلهما غاية منشودة لذاتها وإنما يجعلهما واسطة إلى غايته من العزة والغلب والقهر. فأنت تقرأ قوله:

الرأي قبل شجاعة الشجعان
هو أول ولها المحل الثاني
لولا العقول لكان أدنى ضيغم
أدنى إلى شرف من الإنسان

فتحسبه يقدم الرأي على الشجاعة عرفاناً لحق الرأي وترجيحاً له على كل ما يدرك بالشجاعة؛ فلا يطول بك الشك في ذلك حتى تراه يقول على الأثر:

ولما تفاضلت النفوس ودبرت
أيدي الكماة عوالي المران

فكأن فضل الرأي الصائب الحكيم عنده هو كونه يبصر أيدي الكماة بتدبير عوالي المران ويعين الشجاعة على مرادها. ثم ماذا يكون إذا اجتمعت الشجاعة والرأي لإنسان؟ يكون أنه يبلغ من العلياء كل مكان. فالعلياء هي الغاية القصوى على كل حال.

وفصل الخطاب في هذا الأمر قوله:

حتى رجعت وأقلامي قوائل لي
المجد للسيف ليس المجد للقلمِ
اكتب بنا أبداً بعد الكتاب به
فنحن في دولة الأسياف كالخدم

فالرأي والمعرفة والحكمة والكتب والأقلام هذه كلها خَدَمُ المجد والسؤدد وآلات المُلكِ والاستعلاء. إذا وصلت بك إليها فهي حسنة ميمونة وإذا قعدت بك عنها فهي قبيحة مشؤومة (وبعض العقل عقال) وعندئذ يكون الجنون خيراً من العقل والجهل أفضل من الحكمة!! أو قل إن الكتاب في رأي المتنبي هو الجليس المسامر الذي يؤنسك ويناديمك وليس بالسيد المطاع الذي يملك نفسك ولا بالأستاذ الموقر الذي يسيطر على عقلك. فنعم الجليس هو كما قال ولكن بئس السيد وبئس الأستاذ!! ولا غرو أن يكون هذا رأي شاعرنا في الكتب فإن مزاجاً كمزاجه لم يخلق للنهم بالدرس والانكباب على التحصيل وقضاء العمر بين الكتب والدفاتر على ديدن المستبحرين من العلماء. وإنما

زاده من الدرس التبلغ وشعاره فيه: (بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه!) أو يصح أن يكون شعاره قوله هو بنفسه.

أبلغ ما يطلب النجاح به الطبـ
ـع وعند التعمق الزلل

***

والقوة أيضاً هي محك الأخلاق وبوتقة الفضائل. فما كان منها قوياً أو صادراً عن قوة فهو محمدة فاضلة وما كان منها ضعيفاً أو صادراً عن ضعف فهو مذمة مرذولة. كن حليماً ولكن مع القدرة إذ:

كل حلم أتى بغير اقتدار
حجة لاجئ إليها اللئام

وحازماً ولكن في غير جبن. فإن الجبن الذي يبدو في زي الحزم (خديعة الطبع اللئيم).

وحيياً لأن الحياء من شيمة الأسد لا من شيمة الذئاب، فإذا ضيع عليك الحياء غنيمتك فاخلعه:

فما ينفع الأسد الحياء من الطوى
ولا تتقي حتى تكون ضواريا

وكن صابراً شديد العزم (لا تستغيث إلى ناصر ولا تتضعضع من خاذل) كي تعد نفسك لحمل نوائب الدهر والاضطلاع (بأحداثه الحطم) ثم اعلم أن (سيفك الصبر فلا تنبه) وأن الصبر نقيضه الخوف وإذن (يدخل صبر المرء في مدحه ويدخل الإشفاق في ثلبه).

وكن كريماً ولكن ممن يقال فيهم:

هم المحسنون الكر في كل غارة

وأحسن منه كرهم في المكارم

أو ممن يقال فيهم:

هزمت مكارمه المكارم كلها

حتى كأن المكرمات قنابل

لأن الكرم إنما يحمد ممن يعطى من فيض أيده وقدرته ومما يطفح به معين شجاعته وسعة ذرعه – يحمد ممن يترفع عن المحاكاة في كرمه (فما يفعل الفعلات إلا عذاريا)، ومن السيد الفطن الفعال لما يشق على السادات، لا من وارث تجهل يمناه ما يصنع ولا (كسوب بغير السيف سآل).

وكن صادقاً صدق من يقدم بصدقه على المخاوف ولا يبالي أن يكون سره كعلنه:

القائل الصدق فيه ما يضر به

والواحد الحالتين السر والعلن

وكن قانعاً إذا دان لك المجد واتسق لك الذكر فإنما:

ذكر الفتى عمره الثاني وحاجته

ما قاته وفضول العيش أشغال

أما إذا فاتك الذكر والمجد فالقناعة حوب وعار والرضا بالقليل فاقة في اليد والفؤاد. فقل مع المتنبي:

ليس التعلل بالآمال من أربي

ولا القناعة بالإقلال من شيمي

أو قل معه:

وفي الناس من يرضى بميسور عيشة
ومركوبه رجلاه والثوب جلده
ولكن قلباً بين جنبي ماله
مدى ينتهي بي في مراد أحده

وهذا الشاعر المفتون بالقوة كثيراً ما يتغنى بالوفاء والأمانة والحفاظ ويمدح هذه الخصال في جميع من يمدحهم. ولا نستغرب ذلك، فالحقيقة أن الأمانة –ويدخل فيها الوفاء وحفظ العهد– من أجمل صفات القوة ولفظها في العربية يشير إلى ذلك، فإن الأمون هو القوي والحصن الأمين هو المكان الذي يأمن الإنسان في حماه لمنعته وقوته. ولفظها في اللغات الإفرنجية مشتق من الشرف والعلو، فهي من قديم الزمن صفة رفيعة كريمة.

والمتنبي كان وفياً بخلقه كما كان وفياً بكلامه ومذهبه. يدل على ذلك صفحه عن أبي العشائر الذي ألحق به بعض خدمه لاغتياله ليلاً: وقيل إن ذلك كان برضا من سيف الدولة أو بإيعاز منه فرماه أحدهم بسهم وناداه: (خذه وأنا غلام أبي العشائر) فغفرها له أبو الطيب وأغضى عن يد سيف الدولة في هذه المكيدة وقال متجملاً:

فإن لم يكن الفعل الذي ساء واحداً
فأفعاله اللائي سررن ألوف

ومن وفائه رثاؤه لأبي شجاع في ثلاث قصائد، ذلك الرثاء الذي لا يقرؤه قارئ فيخامره شك في حزنه وحفظه للجميل حتى بعد موت صاحبه، وإن لم يَهِجِ سيف الدولة كما هجا كافوراً؛ بل كان يغالب حنينه إليه وأسفه على فراقه مع أنه فارق سيف الدولة مضروباً موتوراً ولم يفارق كافوراً إلا باختياره.. دع عنك

لهجـه بالوفاء وقوله عن نفسه إنه خلق ألوفاً (لـو رد إلى الصبا لفارق الشيب موجـع القلب باكياً) ودع أنـه عرف بقلة المداجاة والتقيـة في معاشرته للناس حتـى لقد ترك الخضـاب وأبى أن يسـتر شيبه (من هوى الصـدق وعادته). وعـاف كل جمال مموه وأحب جمـال البدويات اللاتي ما عرفن (مضغ الكلام ولا صبـغ الحواجـب) واشتد بغضه وتيهه على كل (جاهـل متعاقل)، إلى غير ذلـك مـن الأقوال والمأثورات التي تشهد في جملتهـا شهادة حق أن الرجل كان مطبوعاً على الوفاء والصدق والصراحة، ولم يكن يكذب في كلامه أو عمله إلا تكلفاً واضطراراً. فليعذر في هذا (فمدفوع إلى السقم السقيم)

وقـد أبـاحـك غشـاً في معاملـة

من كنت معه بغير الصدق تنتفع

ولكـي يبـين لك حب أبـي الطيب للصـدق انظر إلى قولـه في هجاء ابن كيغلغ:

وتـراه أصـغـر مـا تـراه ناطقـاً

ويـكـون أكـذب مـا يـكـون ويقسـم

ثم إلى قوله فيه:

مـنـه تَـعَـلَّـم عـبـدٌ شـق هامـتـه

خـون الصـديـق ودَسُّ الـغـدرِ والملـقِ

وَحَـلْـفُ ألـف يمـين غـير صـادقـة

مـطـرودة ككعـوب الـرمـح في نسق

فهل تـرى أن الهجو بحلـف الأيمان الباطلة في موضعـين من قصيدتين مذمة من تلك المذام التي يختلقها الشعراء اختلاقاً أم ترى أن الشاعر أنكر خلقاً موجوداً في المهجو وقدح في عادة بغيضة إليه؟ ولقد أخطر الرجل حياته

ومـات ليكون فعله كقولـه وحكمه على نفسه مصدقـاً لحكمه على غيره كما ذكـر الرواة في سبب موتـه؛ ولا يكون هذا عمل رجل يستسهل الكذب ويرسل كلامـه من طرف لسانه. على أننا لا نثبت حب أبي الطيب للصدق لأنا نريد أن نحاسـب الفيلسوف الخلقي برأيه ونحتم عليه العمل بمذهبه، فإن القول بـرأي شيء والعمل به شيء آخـر، ولكننا رأينا التوافق بـين خلقه ومذهبه، واضحاً فاستطردنا لنؤدي لشاعرنا هذه الشهادة الواجبة له على قرائه.

فمـن هذا ومما سبق إيـراده يظهر لنا جمـاع مذهب المتنبـي في غاية الحيـاة وأصـل الأخلاق والفضائـل. فالسيادة هي غاية الحيـاة والقوة هي أصـل الأخـلاق والفضائل والمحور الـذي تدور عليه المحامـد والمناقب. وهو يحيـط بأمور كثيرة في شعره ولكنه يطبعها جميعـاً بهذا الطابع ويردها بلا استثنـاء إلى مقياسه هذا الذي لا يتغـير في قصيدة عن قصيدة ولا في بيت عـن بيـت. ولا يسع أحداً بعد الأبيـات المطردة والأمثلة المتواتـرة التي سقنا بعضهـا هنا والتي لم تأت عفـواً ولا فلتة ولا انتحالاً إلا أن يذكر نظائرها من فلسفـة فردريـك نيتشه نبي دين القـوة في العصر الحديـث، وأن يميل إلى المقابلـة بين هـذه الآراء المتماثلة المتفقة في مذهـب الشاعر العربي ومذهب المفكر الألماني. وهو ما عَوَّلْنا عليه.

فلسفة المتنبي وفلسفة نيتشه (1)

ألمعنـا في ختام المقال السابـق إلى التقارب الظاهر بـين المتنبي ونيتشه فيمـا قرراه من أصـول الأخلاق وغاية الحياة. والحـق أن هذا التقارب من مصادفـات الآداب العجيبة. فـإن آراء شاعرنا وآراء المفكر الألماني تتفق في مسائـل كثـيرة اتفاقاً توأميـاً لا نعلم أعجب منه اتفاقاً بـين نابغين مفكرين ينتمي كل منهما إلى قوم وعصر وحضارة ولغة غير التي ينتمي إليها الآخر: تتفـق في مقاييس الحياة وقيم الأخلاق وصرامة العبارة وتفاصيل وجزئيات شتـى ممـا يتفرع على هذه الأصول. ووجهة النظـر على الأقل متحدة في كل مـا نظم الشاعر وخط المفكر مـن المعاني الخاصة والعامة، فمن قرأ المتنبي ثـم قـرأ نيتشه لابـد أن تكر الذاكرة به إلـى كثير من أبيـات المتنبي ووقائع حياتـه كلمـا قلب الطرف في صفحـات نيتشه من رأي إلـى رأي ومن خطرة إلـى خطـرة؛ ولابد أن يشعر وهو ينتقل من أحدهمـا إلى الآخر أنه ينتقل في جـو واحد وبيئة واحـدة وإن اختلفـت في الجانبين بعض المعـالم والأوضاع، وكـم من مـرة وقفت علـى سانحة بارعة أو حكـم صارم مـن سوانح نيتشه وأحكامه لأصغي في نفسي إلى أبيات مثلها للمتنبي تنطلق فجأة من مكامنها في الذاكـرة كأنمـا قد فتـح لها الباب الـذي دخلت منه أول مـرة لاستقبال ضيـف جديد مـن فصيلتهـا!! فلولا أننـا نرى جـذور فلسفة نيتشـه سارية أمامنـا في منابتها ونعـرف علاقاتها بما تقدمها مـن الفلسفات وما أحاط بها من المؤثرات لقلنا إن المتنبي غير مجهول عند نيتشه وأن هذا المستشرق اللغـوي الـذي كان معنياً في بـادئ حياته بلغات الشرق قـد عرف المتنبي في بعض ترجماته إلى الألمانية أو الفرنسي أو اللاتينية.. ألم يكن نيتشه يدرس

(1) البلاغ في 7 يناير سنة 1924.

العبرية ويعني على التبع بأخواتها اللغات السامية؟ ألم يكن المتنبي مترجماً إلى بعض اللغات الأوروبية في إبان اشتغال نيتشه بالدرس والمذاكرة؟ ولكنه احتمال من الاحتمالات التي تعن للذهن ولا يرى موجباً لإقصائها والبت ببطلانها، فلا نزيد في ترجيحه على هذا الحد.

***

فمن قرأ المتنبي ثم قرأ نيتشه لا يسعه أن ينسى الأول حين يقرأ للثاني قوله فيما هو حسن عنده وما هو قبيح من الآداب في كتابه (أرادة القوة).

(ما الحسن؟ كل شيء ينمي في النفس الشعور بالقوة. إرادة القوة. القوة نفسها في الإنسان).

(وما القبيح؟ كل شيء يصدر عن الضعف).

(ما السعادة؟ هي الشعور بأن القوة نامية وأن العقبات مذللة).

(فلا قناعة بل مزيد من القوة. ولا سلم بل حرب ولا فضيلة بل شجاعة).

أو حين يقرأ قوله في (هكذا قال زرادشت).

(أحبوا السلم كوسيلة إلى الحرب والسلم القصير خير من السلم الطويل).

(لا أقول لكم اعملوا بل قاتلوا. لا أوصيكم بالسلم بل بالنصر. فليكن كل عملكم كفاحاً وليكن كل سلمكم نصراً).

(إنكم تقولون إن الغاية الحسنة هي الجديرة بأن تقدس كل شيء حتى الحرب فأقول لكم: إن الحرب الحسنة هي التي تقدس بكل غاية).

(الحرب والشجاعة قد صنعتا للناس مالم يصنعه الإحسان. وشجاعتكم لا عطفكم هي التي أنقذت المغلوبين).

ومن ذا الذي يعرف قول المتنبي:

ومن طلب الفتح الجليل فإنما

مفاتيحه البيض الدقاق الصوارم

أو قوله في هذا المعنى:

أعلى الممالك ما يبنى على الأسل

والطعن عن محبيهن كالقبل

أو قوله:

إذ لم تجزهم دار قوم مودة

أجاز القنا.. والخوف خير من الود

ثم تغيب هذه الأبيات عن باله حين يقرأ قول نيتشه في منشأ الحكومة من كتاب أصل الأخلاق.

(مما هو جلي بنفسه أن الحكومة إن هي إلا جماعة من ذوي النفوس الضارية من أبناء العناصر المتأمرة الغلابة الذين تدربوا على الحرب والتدبير فلا يحجمون عن حط مخالبهم على أي ملأ يصادفونه من الأقوام الهائمين بغير قرار ولا نظام فيخضع لهم هؤلاء وإن كانوا أكثر منهم عدداً. هذا هو منشأ الحكومة على الأرض. أما تلك الفكرة الحمقاء التي ترجع بها إلى الاتفاق والتعاهد فأحسبها مفروغاً منها. فالرجل القادر على السيطرة المخلوق للسيادة الذي يبدو العنف من أعماله وهيئته ماذا يعنيه من الاتفاقات؟ إن أمثال هذا لا يناقشون. إنهم يطلعون طلوع القضاء بلا علة ولا عذر ولا تمهيد. إنهم كالبرق الخاطف أرهب وأوحى وأقوى حجة وأشد مخالفة للمعهود من أن - نعم حتى من أن تحوك الكراهية لهم في النفوس!).

أم من ذا الذي يعرف قول المتنبي:

إنمـــا أنـفـــس الأنـيـــس سـبـاع

يـتـفـارســن جــهــرة واغـتـيـالا

وقوله:

وكــن عـلـى حــذر لـلـنـاس تـسـتـره

ولا يـغـرك مـنـهـم ثـغـر مـبـتـسـم

ولا تـشـكُ إلى خـلـق فـتـشـمـتـه

شكوى الجريح إلى الغربان والرخم

أو قوله فيما يقرب من هذا:

الـــذل يـظـهـر في الـذلـيـل مـودة

وأود مــنــه لمــن يـــود الأرقـــم

وكثـيراً مما ينحو هذا المنحـى من أبيات المتنبي ثم لا تبادر هذه الأبيات أو مـا في معناهـا إلى فكـرة حين ينظر في قـول نيتشه في كتـاب الفجر عن الأخـلاق في عـالم الحيـوان: إن الأصـول التي تتشـدد البيئـات المهذبة في مراعاتهـا كاجتناب ما يبعث السخرية والترفع عـن البرقشة وإخفاء مزايا الإنسان وكتمان عوزه وضروراته الماسة وخضوعه لأحكام الظرف والكياسة المصطلـح عليهـا – كل أولئك يمكـن أن يشاهد على الجملـة في أدنى أنواع الحيـوان أو يقابـل عندها بما يناسبها من قواعـد الكياسة الغريزية المكونة في طبائعها؛ وإذا شئنا أن نهبط إلى أساس بنائنا الخلفي فالبحث عنه إنما يكـون في رسمه الأول الذي أودعتـه الفطرة طبائع الحيـوان. فأما أساسها فالتـودد المقرون بالحذر وقوامهـا الرغبة في النجاة عن الأعـداء والتماس المعونـة على الفتك والاعتـداء. ومن هذا الإحساس الباطـن يتعلم الحيوان

كيف يضبط نفسه ويتصنع إخفاءها؛ حتى أن منه ما يتخذ لجلده لوناً يتألف مـع ألـوان ما يحدق به (وهو ما يسمونه وظيفة التلـون). ومنه ما يتماوت أو يتشـكل بشكل حيوان آخر ولونه ويماثل الرمال أو أوراق الشجر أو العشب أو الإسفنـج (وهو ما يسميـه الطبيعيون الإنجليز بوظيفـة التقليد) ولا يخرج الأدب الإنساني عـن هذه الفطرة. فإن الفرد ينضوي تحت اسم نوعه العام ويكيـف نفسه كما يوافق من يتصل بهم مـن الأمراء والبيئات والأحزاب، أو يجري مع تيار الأفكار في عصره ويلائم ما يحدق به من الأطوار والأحوال.

وليس أيسر علينا من أن نراقب هذه القدرة في الحيوان. فإننا وإياه سواء في حـذق هذه الوسائل التي تكسبنـا السعادة والشكر وتظهرنا بمظهر القوة بـين أقراننـا وتجذب إلينا الأنظـار من حولنا. بل نحن نقـول إننا والحيوان نشـترك في إدراك معنى الحق. وما الحق في لبابه إلا مظهر حاسة التحفظ والرغبـة في الأمن والتقية. فنحـن نأبى أن يخدعنا غيرنا أو ننخدع لأنفسنا بالباطـل ونتوجس من إغـراء عواطفنا ثم ننظر بعين الحـذر والحيطة إلى ميولنـا، وكذلك الحيـوان، فإننا إذا راقبناه ألفيناه يفعـل كما نفعل ووجدنا هذه الحيطة أو ضبط النفس صادرة فيه من نفس الشعور الذي تصدر عنه في الإنسان؛ وأعني به الحزم.

(... فـإذا تذكرنـا أن الإنسـان المترقي لم يتقدم في هـذه الغرائز إلا في انتقاء أجود الطعام والتوسع في فهم آفات بقائه لا نكون قد تجاوزنا الصواب إذا قلنا إن أخلاق الإنسان ليست إلا نسخة مهذبة من أخلاق الحيوان).

أمـا رأي نيتشـه في التعلم والتـزود من المعرفة فقربت مـن رأي المتنبي. يقـول نيتشـه (ليست المعرفة الغزيـرة شرطاً ضرورياً للتهذيب ولا هي من علامـات وجوده) ويهتـف بقول جيتي: (أكـره كل ما يعلمنـي دون أن ينمي

نشاط نفسي أو يحتثه) وهو يشبه (المتخصصين) بأعضاء مفرطة الكبر تنمو نمواً شائها فتسقم بقية الأعضاء. ومن صوره المضحكة صورة الأذن التي لقيها سائرة على القنطرة فتفرس فيها فإذا هي إنسان هزيل ضئيل يحمل أذناً كبيرة تغطي جرمه وتثقل جسمه!! والمتنبي إن لم يكن قد توسع في هذا الرأي ونظر فيه بهذه العين فهو في الواقع قد نهج في طلب المعرفة منهجاً يرضي ويستصوب من الوجهة التي نظر إليها نيتشه. ولعلنا نوضح حقيقة نظر المتنبي إلى المعرفة بأبيات له نظمها في وصف كتاب لابن العميد جعل الشاعر كلماته كالأسود المفترسة فقال بعد بيتين:

فأَخْرَقَ رائيه ما رأى
وأبرق ناقِدَه ما انتقد
إذا سمع الناسَ ألفاظه
خلقن له في القلوب الحسد
فقلت وقد فَرَّس الناطقين
كذا يفعل الأَسَدُ ابن الأسد

قال الواحدي: ولو خرس المتنبي ولم يصف كتاب أبي الفتح بن العميد بما وصف لكان خيراً له... وكأنه لم يسمع قط وصف كلام! وأي موضع للإخراق والإبراق والفرس في وصف الألفاظ والكتب؟ هلا احتذى على مثال قول البحتري في قوله يصف كلام ابن الزيات.

في نظام من البلاغة ما شك
امرؤ أنه نظام فريد
وبديع كأنه الزهر الضا
حك في رونق الربيع الجديد

إلــى آخر الأبيــات. وصحيح أن أبيــات البحتري أجمل وأعــذب وأصفى ديباجــة وأندى موقعــاً، ولكن أين البحتري من المتنبــي؟ أبيات المتنبي أشبه بــه وأوفــق له وهو خير مــا يصف به الكتــب رجل مثله يريــد أن ينتضي من كل شــيء سلاحاً ويهيج من كل خاطــر أجمة مسبعة ويُشْهِرُ من كل عدة قوة وبأســاً حتى من القلم والــدواة. وهكذا يمدح كتاب الوزير الذي أَبْلَغُ ما يقال في وصــف بلاغتــه إن أقلامه عدةٌ مــن عُدَد الدولة تنوب لهــا عن السيوف، وتغني في مدافعة أعدائها ما قد يغنيه الكماة الأسود!! وهذا موضع الإخراق والإبراق والفرس والقيامة التي أقامها المتنبي حول كتاب ابن العميد وأجفل منها الواحدي رحمه الله.

***

على أننا نعتقــد أن المتنبي قد سبق نيتشه إلى أخص آرائه التي اشتهرت بها فلسفته وانفردت بها بين الفلسفات الخلقية الأخرى. فنيتشه مشهور بين أصحــاب الدعوات الخلقيــة بتقسيمه الأخلاق إلى طرازيــن: أخلاق السادة وأخــلاق العبيد، ودعوته إلى قياســ كل من هذين الطرازين بمقياس يختلف عــن مقياســ الآخر. قال في كتابــه وراء الخير والشر: (هنــاك آداب للسادة وآداب للعبيد). ونضيف على الفور أن المدنيات العالية المتداخلة تميل أحياناً إلى المزج بين هذين النوعين من الآداب. ولكنك تجد - أكثر من هذا الميل إلى المزج - تنافراً وارتباكاً بينهما حتى في الإنسان الواحد في السريرة الواحدة. ولنعلــم أن قواعــد الآداب قد تولــدت إما في طبقة حاكمــة تغتبط بما تحسه مــن التفاوت بينها وبين المحكومين أو في طبقة المحكومين وهم العبيد والعالة مــن جميع الطوائف؛ ففي الحالة الأولــى يملي الحاكمون معنى الخير فيكون الزهو والعــزة سمة الأخلاق والمميز بين الأقدار والأطواق.. وليلاحظ حينئذ

أن النقيضين (الحسن والرديء) في عرف هذه الطبقة هما مرادفان فعلا للشريف والخسيس. أما النقيضان الطيب والشرير فإنهما من معدن آخر.

والمتنبي كان يلحظ البون الواسع بين أخلاق الأحرار وأخلاق العبيد في كل موضع يفرق فيه بين خلق مجيد وآخر شائن. فاسمع أولاً قوله:

العبد ليس لحر صالح بأخ
لو أنه في ثياب الحر مولود

ومن قبيله ولكنه أظهر منه للتقسيم هذا البيت:

وما في سطوة الأرباب عيب
وما في ذلة العبدان عار

أليس هذا قضاء صريحاً بالتفريق بين أخلاق السادة وأخلاق العبيد حتى لا يعار الذل على هؤلاء لأنه من شأنهم ولا يعاب السطو من أولئك لأنه من حقهم؟ ثم اسمعه إذ يقول:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته
وإن أنت أكرمت اللئم تمردا
فوضع الندى في موضع السيف بالعلا
مضر كوضع السيف في موضع الندى

وهو معنى كرره في موضع آخر فقال:

والغنى في يد اللئم قبيح
قدر قبح الكريم في الإملاق

واذكر أن كلمة اللئم واردة في عامة شعر المتنبي بمعنى العبد أو الوضيع ثم انظر ألست ترى هنا تفصيلاً لمقياسي الأخلاق وإثباتاً لاختلاف الكيل

الـذي يجب أن يكال به لـكل طراز من الناس وتباين الحقـوق والمنازل التي يجـدر أن يعطاهـا الكرام واللئـام أو الأحرار والموالي؟ ولقـد كان المتنبي لا ينعـى على عصره شيئاً كما كان ينعى عليه تشابه الأخلاق وتقارب المساعي بـين السادات والعبيد والقادرين وغير القادرين. ومن ذلك قوله بعد أن قال إنه يأنف من أخيه لأبيه أو أمه إذا لم يجده كريماً:

ولم أر في عيوب الناس عيباً
كنقص القادرين على التمام

وقوله:

تشابهت البهائم والعِبدَى
علينا والموالي والصميم

ومنـه قوله في الدالية قبل البيتين الآنفين: (ومن لك بالحر الذي يحفظ اليدا؟!) وبيته الذي يعرض فيه بسيف الدولة ويهجو كافوراً:

وذاك أن الفحول البيض عاجزة
عن الجميل فكيف الخصية السود؟!

فلـو أن نيتشـه كان شاعـراً عربياً لما فصـل تفريقه بين أخـلاق السادة وأخلاق العبيد بأوفى من هذا التفصيل. وليس يقدح في صحة شعور المتنبي بالفارق بين ذينك الطرازين من الأخلاق ما فرق به العرب قبله بين (شيمة الحـر وشيمة العبد) فإنك تستطيع أن تـرى مصدر التمييز بين الخلقين في طبيعـة المتنبي وهجسات نفسه وبـدوات مزاجه، ولو لم يسبقه إلى شيء من ذلك أحد من قالة الحكم والأمثال.

والمتنبي كصاحبه يأنف من المساواة ويأبى أن يقف دون النهايات في جميع الفضائل والمراتب. فنيتشه يعد المساواة ظلماً ويرى العدل أن تختلف الأقدار

بين الناس ويفرض على الإنسان أن يفوق نفسه ويتخطى أفقها إلى أفق أعلى منه على الدوام. والمتنبي يحتقر أن يرضى بالحظ الجليل إذا ساواه فيه من هو دونه ويأبى الصيد الشهي إذا تلاقت عليه كرام الطير وبغاثها:

وشـر مـا قنصـته راحـتـي قنص
شـهب الـبـزاة سـواء فيـه والـرخـم

فليس الحظ الجليل هو بغيته وأمنيته وإنما العلو وبذ الأقران ما يبتغيه ويتمناه، وهو قد يؤثر الموت على حياة يشاركه حساده في أنصبائها:

ومـا مـوت بـأبـغـض مـن حـيـاة
أرى لـهـمـو مـعـي فـيـهـا نـصـيـبـاً

ولكن...

هـو الجـد حتى تفضل العينِ أختها
وحتى يصير اليوم لليوم سيدَا

واتفقا أيضاً في أنهما مبدعان لا تبعان في الأخلاق والأقدار. أي أنهما ممن يقيسون الأخلاق ويقدرون المنازل لأنفسهم ولا ينتظرون أن تقاس أو تقدر لهم على الرغم منهم، فيكونوا فيها ذنباً مقتدياً بوضاعها ومروجيها ويجري عليهم ما يجري على غيرهم، فيقول نيتشه: (لا الذوق الجميل ولا الذوق القبيح! بل ذوقي أنا.. ذلك الذي لا أخجل منه ولا أداريه) ويقول: (إن الطراز النبيل من بني الإنسان يعتبر نفسه حكماً في تقويم القيم ولا يحتاج إلى تفويض فيها أو تأمين عليها فهو يرى السوء ما يسوءه هو ويعلم أنه هو الذي يخلع الشرف على الأشياء. إنه خلاق مبدع للقيم والمعايير) والمتنبي يشرط على السيد أن يترفع عن المكارم التي كان لها زوج قبله (فما يفعل الفعلات إلا عذاريا) ويفتخر بنفسه فيقول:

أنــا الــذي بـين الإلــه بـه الأقـ
ـــدار والمـــرء حـيـثـمـا جـعـلـه
جــوهــرة تـفـرح الـشـــراف بـهـا
وغـصـــة لا تـسـيـغـهـا الـسـفـلـه

بل هو يجعل الفخر مفتخراً به لأنه انتسب إليه:

فـخـر لـعـضـب أروح مـشـتـمـلـه
وسـمـهـــريٍّ أروح مـعـتـقـلـه
ولـيـفـخـر الـفـخـر إن غـدوت بـه
مـرتـديًـاً خـيـــره ومـنـتـعـلـه!!

فالمتنبي إذن (معين للأقدار) بمعناه الذي أراده. وهو كما جاء في عبارة نيتشه (خلاق مبدع للقيم والمعايير).

فلسفة المتنبي - بين نيتشه وداروِن (1)

لقد وفق المتنبي توفيقاً جميلاً بين داروِن ونيتشه في تعليل بواعث الأخلاق ومصـادر الفضائل. فداروِن يحسب أن حفظ الـذات أو (إرادة الحياة) هو مـرد الأخـلاق والصفات النفسيـة الحسن منهـا والقبيح على حـد سواء. ونيتشه يسترذل هذا الـرأي ويسخر منه ويزعم أنه وليد العوز والخصاصة التـي عـوَّدت داروِن أن يقنـع (بـأن يعيشـ) وألاّ يتطلـع إلى ما فـوق الأمن والكفاف. وعنده أن الباعـث الأول إلى الفضائل الشريفة والأخلاق الرائعة الكريمـة هو (إرادة القوة) وهو المجـد الهادي إلى كل خلق نبيل والنائي لكل خلق وضيع ذليل.

تعليـلان يختلفان في ظاهر الأمر وباطنـه كما ترى اختلاف العمل الذي يبعـث إليه اتقاء العدوان من الغير عن العمل الذي يبعث إليه توخي العدوان علـى ذلك الغير. فهما جد متباعدين؛ ولا مناص لك إن أخذت بأحدهما أن تنبذ الآخر أو تضيف إليه ما يكمله ويسنده. أما الجمع بينهما فكالجمع بين المتناقضات، ومحاولة ذلك دليل على سوء فهم لكل من التعليلين وقلة إدراك للنتائج البعيدة التي ينتهي إليها تعليل مصادر الفضائل بحب المحافظة على الحيـاة أو بحـب المحافظة على السيـادة والسلطان. أتكـون الفضيلة وليدة القناعـة بأيسر ما يترك لـك المزاحمون من سؤر الحياة في دعة وسلام؟ أم تراها تكون وليدة الطمع في أرفع ما ينال بالسطو والكفاح؟ على هذا اختلف داروِن ونيتشـه ومن هذا يظهـر لك مدى الفاصل بين مـن يدين بالمحافظة على الحيـاة ويقف عندها، وبين من يدين بالمحافظـة على القوة وهو يجعل الحياة سلماً يرتقي عليه إلى ذلك الأمل.

(1) البلاغ في 28 يناير سنة 1924.

ولما عرضت لدارون صعوبة تعليل الفضائل التي تهجم بصاحبها على الموت وتكدر عليه صفو الحياة ألقى (حفظ الذات) جانباً واخترع لنا حفظاً آخر هو (حفظ النوع) ليعلل به إقدام المرء على الهلاك واجتراءه على ما فيه إتلاف جسمه وإعنات نفسه.. وحسن حفظ النوع هذا لتسهيل المخلص من هذه الورطة. حسن إلى أن تسأل بعد ذلك: أليس للنوع نفسه غاية تتراءى على وجه ما في أخلاق الأفراد؟ فما هي يا ترى تلك الغاية؟ ثم لك أن تسأل حين تتعارض السيادة والقناعة فيما يدور عليه حفظ النوع من أخلاق الأفراد: أي الخصلتين أشرف وأكمل وأيهما أدعى إلى ابتعادنا عن مواطن الضعة والجمود واقترابنا من ذلك الشأو المجهول المقدور لنوع الإنسان؟ أتبتعد أنواع المخلوقات عن الدرك الذي كانت فيه وتقترب من الشأو الذي تسعى إليه بالحرص على الحياة أم بالحرص على شيء أفضل وأسمى من الحياة؟ إن على دارون أن يقول كلمة لا تزال ناقصة بعد كلمته التي قالها في حفظ الذات وحفظ النوع، أما نيتشه فقد أبرأ ذمته بتلك الكلمة الوجيزة العائرة فلا يطالب بعدها ببيان ولا هو ممن يجيبك أو يصغي إليك إذا سألته البيان!

والمتنبي ما رأيه في هذا الخلاف؟ قلنا إنه وفق توفيقاً جميلاً بين دارون ونيتشه، فلنقل الآن إنه أرضى دارون ولم يغضب نيتشه لأنه قد ألف بين إيثار الحياة وإيثار السيادة في وسط الطريق وأبطل التناقض وأزال الخلاف لأنه قال لنا إن كل إنسان إنما يحب حياته هو لا كل حياة ولا أي حياة.

فحب النفس في رأي المتنبي هو الحامل الشجاع على شجاعته وحب النفس كذلك هو الحامل الجبان على جبنه:

أرى كلنا يبغي الحياة لنفسه
حريصاً عليها مستهاماً بها صبًا
فحب الجبان النفس أورثه التقى
وحب الشجاع النفس أورده الحربا

ولكن ما أبعد الفارق بين النفسين، وما أكبر المسافة بين الغايتين، وما أعظم الاختلاف بين ما يحبه هذا وما يحبه ذاك؟

فيختلف الرزقان والفعل واحد
إلى أن ترى إحسان هذا لذا ذنبا

نعم! فالحياة حبيبة إلى الشجاع ولكن ما الحياة التي تحبها نفس الشجاع؟ أهي ككل حياة تحبها النفوس؟ لا! وإنما هي حياة الحول والطول والمغامرة والجلاد وتجربة الأهوال ومناهضة الخطوب والصبر على عظائم الأمور. فهذه هي حياة الشجاع التي تحب وتفدى، فإن أذعنت له الدنيا بما يروم منها طابت له مقاماً وطاب بها نفساً وإلا فلا خير في حياة تفنى عناصرها ومقوماتها ولا يبقى منها إلا شبحها!! تلك حياة هي الموت بعينه أو الموت خير منها.

والحياة حبيبة إلى نفس الجبان ولكن ما الحياة التي تحبها نفس الجبان؟ كل حياة بلا حد ولا قيد. أو كما جاء في القرآن الكريم: (وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ) بذلك التنكير الذي لا تعرّفه أل ولا إضافة. فإن تهيأ لها مركب العز سهلا رخواً صعدت إليه عفواً صفواً واتخذته رفاهة ولهواً. أما إن صال عليه صائل أو حال دون مرتقاه حائل فلا كان العز ولا كان من يأسى عليه! إن المورد الرنق لأشهى من سلسبيل ومرتع وبيل، وإن كلباً حياً لخير من أسد قتيل.

فليس المعول على حب الحياة وإنما العول على ما يحب منها. وليست العبرة بالخوف في نفوس الجبناء أو بقلة الخوف في نفوس الشجعان وإنما العبرة بما يخافه هؤلاء وهؤلاء. فقد تكون قلة الخوف أحياناً جبناً لا يقاس به جبن وقد يكون الخوف أحياناً شجاعة تربو على كل شجاعة. إذ ما من شيء مخوف في ذاته عند جميع الناس في جميع الحالات ولكن الشيء الواحد قد يخافه أناس ويستهين به آخرون وقد يؤمن في حالة ويخشى في حالة أخرى.

وما الخوف إلا ما تخوفه الفتى

ولا الأمن إلا ما رآه الفتى أمنا

فرب رجل يحمل صنوف العار كلها فراراً من ألم خفيف أو ضرر طفيف، ورب رجل يجازف بنفسه ويدخل على الموت في غيله تفادياً من كلمة أو فرقاً من وصمة:

والعار مضاض وليس بخائف

من حتفه من خاف مما قيلا

وما هذه الحياة بشيء واحد ولا باللازم من حب الإنسان لحياته التي يختارها أنه يشفق من كل موت:

فشر الحمامين الزؤامين عيشة

يذل الذي يختارها ويضام

إذ الحياة كالموت أشكال. فمن أشكال الحياة ما يكره وينبذ ومن أشكال الموت ما يحب ويطلب. وعلى هذا لا تناقض بين حب المرء حياته وحبه القوة في بعض الأحيان، لأنه قد يريد الحياة القوية حين يقتصر على ذكر الحياة، بل قد يكون طلب الحياة عنده مرادفاً لطلب الموت عند امرئ سواه.

ذلــك توفيق المتنبي بين رأيي دارون ونيتشــه: توفيق مداره على أن بعض الحيــاة شر من بعض الموت وأن الجــريء المخاطر يحب حياته حين يوجهها وجهتهــا من اقتحام المصاعــب وملاقاة الخطــوب. ولا يتوهمن القارئ من هذا الهيام بالمجد وهذا الاستهزاء بالموت أن المتنبي يجهل من حلاوة الحياة مــا يعلمه الحريص القنوع أو يخفى عليه من مرارة الموت ما يتقيه الضعيف المنخــوب والجبــان الهلــوع، ولا أنه كان رجــلاً يقدر حب الحيــاة دون قدره ويتهجم على الموت تهجم الوحش الذي لا يشعر بنفسه ولا يدري عاقبة أمره. كلا! مــا كان المتنبــي بذلك الرجل وما كان طعــم العيش أحلى في قلب أجبن الجبنــاء مما كان في قلبه: مــا كان هيناً على نفسه أن يمــوت وأن تسكن في صــدره أنفاس هذا الهواء الذي ألفه وأن تهــدأ فيه تلك العاصفة التي كانت لا تــبرح تقيمه وتقعده، إنمــا كان الرجل كما ينبئك شعــره مشغوفاً بالحياة عاشقــاً لها قد أحبها حبــاً جمًّا وجس بكل خالجة مــن خوالج نفسه هاتيك القيــود الصــلاب التي تربط الإنســان بمكانه فوق هــذه الأرض وتحت هذه السمــاء. ولقد ذكر هــذه الحقيقة وكررهــا أكثر من تكرير أبــي دلامة لها، أي أكـثر من تكرير الجبان المقر على نفســه بالجبن على مشهد من جيشين متناجزين. فكان من قول المتنبي في هذا المعنى:

ولــذيـذ الحـيــاة أنـفــس في الـنفـ
ـس وأشـهـى مـن أن يمـل وأحـلـى
وإذا الـشـيـخ قــال أف فـمـا مـلّ
حـيــاة وإنمـــا الـضـعـف مــلا

ومن قول فيه:

إلــف هــذا الــهــواء أوقـــع في الأنـــ
ـفـس أن الحِــمــام مــر المــذاق

ومنه:

تـغـر حــلاوات الـنـفـوس قلوبها
فتختار بعض العيش وهو حِمام

ومنه:

ومـــن لم يـعـشـق الـدنـيـا قـديمـاً
ولـكــن لا سـبـيـل إلى الـوصــال

وقـــال: (وهي معشوقة على الغدر..) وقال: (والمرء يأمل والحياة شهية) وقال وهو جماع قوله في هذا المعنى ومحور كلامنا في التوفيق بين حب الحياة وحب المجـد والحكم الحكيم الـذي أنصف فيه الشجاعـة وأنصف الشعور بحب الحياة:

أرى كـلـنـا يـبـغـى الحـيــاة لنفسه
حريصاً عليها مستهاماً بها صبا
فحب الجبـان النفس أورثـه التقى
وحب الشجاع النفس أورده الحربا

فـأي شغف بالحياة أشد من هذا الشغف؟ ولكننا نعود فنسأل أي حياة؟ لا شـك أنها هي حيـاة بعينها لا مجرد حياة مطلقة مـن التعريف والتقييد. هي حياة المتنبي لا حياة أخرى يكون فيها الضيم أهون الأضرار والعار فيها أسلـم من النار، حيـاة العزيز الجريء التي غايتها الكـبرى الشرف وآفتها الكبرى الذل والمهرب فيها إلى الموت – إن كان لابد من مهرب أمين.

وقد رأينا من قبل أن الدعوة إلى الشرف والرفعة كانت ملتقى كل دعوة في شعـر المتنبي ومسبار كل خلق وغاية كل مطلب ونتيجة كل مقدمة. وسنرى من عجائب غلبـة المزاج على المنطق أن المتنبي ينتهي إلـى طلب الشرف والرفعة مـن نفس المقدمات التـي تنتهي بغيره إلى نتيجة أخـرى مناقضة لنتيجته كل المناقضـة. ينتهي إلـى طلب الشـرف والرفعة من تلك المقدمـات التي تنتهي بالآخرين إلى هجر الحياة والزهد في شرفها ورفعتها والإعراض عن سلطانها وبهجتها والرضا باليسير من بلغتها والقليل من مسكتها. فهو يقول:

يمـوت راعـي الضـأن في جهله
مـيـتـة جـالـيـنـوس في طبـه
وربمـــا زاد عـلـى عـمـره
وزاد في الأمـــن عـلـى سـربـه
وغـايـــة المـفـــرط في سـلـمـه
كـغـايـة المـفـــرط في حـربـه

وإلـى هنـا لـو كان صاحب الأبيـات شاعراً آخـر كالمعري مثـلاً أو كأبي العتاهيـة لأتمها بالنصح لك بالزهد والقناعـة وإراحة البال وإعفاء النفس من أوضار المطامع ولجاجات الخصومة، ولقال لك إن التبلغ باليسير أحجى بالحكمـاء واليأس مـن الحياة أولى بالأحياء، فإنـه لا فضل فيها لعالم على جاهـل ولا رجحـان فيها لنابـه على خامـل؟ أليس الموت يأتـي على الجميع ويقضـي على الضعيف الذليـل قضاءه على القوي المنيـع؟ أليس سعيك إلى انتهـاء ووجـودك إلى فناء ومالـك وسلطانك إلـى هباء؟ فما لـك ألا تريح نفسك وتعفي جسدك وتغنم من الحياة الراحة والعافية وهما نعم الغنيمة لا تكلفك سعياً ولا تخلف لك أملاً؟

ولا ريب أنه منطق قريب قد كان يكون مقبولاً عند كثير من الناس ونتيجة سهلة لا يعقلون نتيجة غيرها لتلك المقدمة. أما المتنبي فما أبعد هذا المنطق عنه!! إنه ليخلص بك من تلك المقدمة إلى نصيحة بعيدة كل البعد عن الزهد والقناعة، ويقول لك إن الحياة قد وعظت أهلها فلم تبق عذراً للجبان الذي يخاف الموت ويشفق أن يغامر بنفسه وراء حاجته.

فلا قضى حاجته طالب
فؤاده يخفق من رعبه

وعلى هذا النسق، ومن نوع هذا الاستنتاج، يقول في بيت آخر:

وإذا لم يكن من الموت بد
فمن العجز أن تموت جبانا

لا، بل لقد كانت تطرق المتنبي نوبات من الزهد ورفض الحياة في بعض الأحيان أفتدري من أي جانب كانت تطرقه؟! من الجانب الذي يسمو به إلى المغامرة والنضال، أي من جانب الشرف والرفعة الذي تفضي إليه كل نواحي نفسه ومجامع هواه.

فهو يقول:

وما الدهر أهل أن تؤمل عنده
حياة وأن يشتاق فيه إلى النسل

أو يقول:

أكرم يديك عن السؤال فإنما
قدر الحياة أقل من أن تسألا

وربمـا أراك استصغاراً للحياة واستهانـة بشأنها أن يكون فيها ما يقتتل عليه الناس ويتعادون من أجله فيقول:

ومـراد الـنـفـوس أصـغـر مـن أن
نـتـعـادى فـيـه وأن نـتـفـانـى

فيخيل إليك أن الرجـل قد تاب وأناب فسئم جهاد الحياة وعاف فضول العيش وسكن إلى الراحة والسلام وسلك مسلك الزاهدين القانتين. ولكنك لا تعبر البيت إلى ما بعده حتى تقرأ له على الأثر:

غـير أن الـفـتـى يـلاقـي المـنـايـا
كـالحـات ولا يـلاقـي الـهـوانـا

فإذا هـو يحض على التعادي والتفاني، أو كأنمـا هو في هذا الاستدراك عابد متنطس يزل لسانه بالتجديف على غير وعي منه فيبادر إلى التوبة، أو يقول ما يخشى أن يحمل على غير وجه فيسرع إلى التصحيح. تكفيراً لذنب فرط منه في حق إله شديد العقاب عسير الحساب.

***

والواقـع أنها عبادة كأصـدق العبادات، وأَنَّ تَمَسُّـكَ عِبادها بها أخلص وأقـوى من تمسك العِباد بصلواتهم وفرائضهـم. لأنهم يقومون بشعائرهم أرادوا أو لم يريـدوا ويتلـون صلواتهم أمروا بذلـك أو لم يؤمروا. هي عبادة القـوة والشرف وأَكْرِمْ بها من عبادة لا تعارض العبادات بل توافقها جميعاً، وأَحْبِبْ بهـا إلـى كل نفس تخلص الحـب للحياة وتصـدق في إيمانها بالمثل الأعلـى وتـود للعالم أن يطهر مـن النقائص ويستوفي قسمـه من الكمالات. وأي نفس تلك التي تكره القوة وترتاح إلى الضعف؟ أي إنسان حقيق بشرف الحيـاة يشايـع في ضمـيره أسباب النقص والفنـاء ويدابر أسبـاب الكمال

والارتقـاء؟ فالقـوة حبيبة إلـى كل نفس أثيرة في كل قلب، ومـن الشرف أن نتمنى شيوعها وازديادها لا أن نتمنى دثورها واضمحلالها. بل من الحصافة أن نعلم ماذا نصنع حين ندعو إلى إنكار القوة وكراهتها.. إننا حينئذ نجلب الخـراب والعجز على العالم ونسمي ذلك فضيلـة وحقاً وصلاحاً وما هو إلا عين الرذيلة والباطل والفساد.

لا عيب في حب القوة نفسه، فإن كان هناك عيب فهو في شريعة محبيها أو في تطبيقهـم لشريعتها على الأصح. لأنهم يجورون غالباً عن السبيل السوي ويغلـون في اعتقادها غلواً يكون فيه إضرار بالقوة نفسها وإخلال بفرائضها وأحكامها ويفوتهم في أعم حالاتهم ثلاثة أمور:

يفوتهم أولاً أن من القوة واستقلال الخُلُق أن يدين الإنسان نفسه بنفسه ويعرف العدل قبـل أن يعرفه به غيره. وإلا كان شأنه كشأن الضعيف المجبر الذي يضطر اضطراراً إلـى رعاية الحق والوفاء، ويُخَوِّف من المنكر بالقمع والجزاء، ويكون تبعاً لغيره في الخلائق والآراء.

ويفوتهم أكثر من ذلك أن الإيمان بالقوة الرفيعة قرين الإيمان بالجمال حيث كان. فالرجل القوي حقاً لن تخلو نفسه من شعور عميق بالجمال ونفور عميـق من القبح، ومن كان كذلك فحري به ألا يطيـق منظر الشقاء والذلة والعـوز في الدنيا؛ ولا يصبر على رؤية النفوس الآدمية تُشَوِّه والعقول تُمْسَخ والقرائِـح تُعْطب وتُسْقم والجسـوم تُرث وتُهرم؛ ولا يسمح لـه فؤاده الكبير وطبعـه السليم أن يجترئ على ضراعة الضارعين ويجرد قوته لإبادة العزل القانعـين. فإن لم تصل بينه وبينهم صلـة التعاطف فيمسح ضيمهم وينعش أملهم ويستر خلتهم فلا محيص له من فعل ذلك كراهة للقبح وحباً للجمال وتحسينـاً لهذه الدنيـا التي يجب على القادرين فيها مـا يجب على الإنسان

القـادر في منزله - أن ينظفه ويجعل كل من فيه من الكبار والصغار وفق ما يرضى من سيما الكرم وبشاشة الجمال.

ويفوتهـم أخيراً أن يفرقـوا بين الضعف الذي هو نقيض القوة وسالبها وآفـة وجودها وبين القوة الصغيرة التي هي مـن عنصر القوة الكبيرة ومن لحمهـا ودمهـا ولكنهـا أقل منها في الحجـم أو في العدد.. فهـذه الجماهير الكثيفـة التي نسميها (الضعفـاء) جهلاً وغروراً ليسـت بالضعيفة على أي معنـى من معاني الضعـف وإنما هي قوية متجبرة طاغية بل هي ينبوع القوة الـذي لا ينضب بـل هي القوية حقاً وغيرهـا الضعيف بالقياس إليها. وآية ذلـك أن القوانين كلها في مصلحتها هي لا في مصلحة الأفراد الأقوياء، لأن هـذه القوانين تسوي في الوضع بين الفرد الكبـير والفرد الصغير في صيانة الحقوق وحرمة الحياة وليس ذلك مما يهواه الكبار لو كان الأمر لهم والقوة كما يزعمـون في أيديهم ودساتـير العرف من إملائهـم. ويعجبني ما أثبته الأستـاذ رمـزي موير في عرض كلامه على تـدرج القوانين الدولية في كتابه (القوميـة والدولية) حيث لاحظ أن وضّاع الشرائع الدولية كانوا كلهم أبناء أمم صغيرة مستضعفة: فجروتيوس وبينكر شوك هولنديان وفاتل سويسري وبفندرف وليبنز وولف من أبنـاء الإمارات الألمانية الصغيرة قبل اتحادها. قال: (ومثل واحد بسيط يبين لنا الاستعداد العام بين الأمم المتمدينة لقبول الأصـول الدولية. فإن مـن المسلم به بين الجميع أن سيـادة كل دولة بحرية تنتهـي على مسافة ثلاثة أو أربعة أميال مـن شواطئها وأن البحار وراء هذا الخـط مفتوحة لجميـع الأمم علـى السواء. هـذا المبدأ مقبـول معترف به عنـد جميع ملـوك الأمم وحكوماتها فمـن أين مصدره؟ ومـن الذي فرضه علـى الملوك؟ لا أحد غير الرسائـل المدونة في القانون الدولي. ومما يستحق

التنويـه أن هذا المبدأ لم يعـرف إلا في الأزمنة الأخيرة فقد كان ظهوره على شـكل واضح محدود لأول مرة في كتابات فاتـل..) ولا شك أن هذه الحقيقة التـي لاحظها الأستاذ المؤرخ خليقة بالاعتبـار فيما نحن بصدده لأنها ترينا كيـف يملي الضعفـاء إرادتهم في بعض الأحيان، وإن كان لها تعليل آخر غير الذي أسلفناه وهو أن النفس ربما أصغت للصغير ولم تصغ للكبير، إذ كانت لا تحسـن في إصغائها لمن هو أصغر منها معنى الخضوع والتسليم الذي تأباه ويستفز منها العناد والكبرياء.

والنتيجة الصحيحة من هذا وذاك أن القوة أهل لأن تُحب وتُرعى وتُكرَّم ولكن يجب على من يدين بشريعتها أن يكون قوياً على نفسه وأن يقرن بينها وبـين شعور الجمـال، وأن يفرق بين الضعـف المبيد والقـوى الصغيرة التي تجتمـع منها القوة الكبرى، وإلا فقد كفر بدينـه واستحق العقاب على حكم شريعته.

فن المتنبي (1)

مـن حق البحث علينا بعد ما أخذنا فيـه من كلام على حياة المتنبي وشعره أن نقـول كلمة مجملة في مكانة الرجل من جهة الفـن والطريقة النظمية، فهل المتنبي فنان؟ وهل تتسع دائرة الفن حتى تشمل المتنبي ومناقضيه من الشعراء؟

أمـا إن كان الفن هو صقل العبارة وتوشية الكلام ولطافة المدخل وحسن الاحتيـال ودقة الذوق ورقة الملمس ومهارة اليد فليس المتنبى من رجال الفن في مرتبـة تذكر، وليس له من حذق الصناعـة نصيب يعد ويؤثر. فقد خرج مـن عِداد الفنانين بهذا التعريف كما خرج فحول الشعر الذين ينحون نحوه ويشبهونه في قلة النصيب من هاته المحسنات وهم كثيرون.

وأمـا إن كان الفـن يتسـع لمـا تتسع لـه الحياة مـن اختـلاف العبارات والإشـارات وتنـوع الصيـغ واللهجـات ويحوي مـن قوالب النظـم بقدر ما تحويه النفوس الشاعرة مـن أفانين الشعور ومشارب الذوق فليدخل المتنبي عـالم الفـن في مقدمة الداخلين وليكن ثم على طليعـة أمثاله من الصانعين والفنانين. يدخل ولكن من باب المتانة والصلابة لا من باب الجمال والزينة. وليكـن مقامه في رحاب الفن الفسيحات حصناً من حصون المريخ لا قصراً من قصور الزهرة ولا جوسقاً من جواسق باخوس. حصناً يلقاك بالضخامة والجـد أينما واجهته ويستقبلك بالعدة والسلاح من حيثما طرقته. فرعوني البناية لا تلمح عليه مسحة من طلاوة اليونانية ولا أثراً من بذخ الكسروية.

ومـا لنا نأبى على الشاعر أن يبتني لنا من شعره معاقل وحصوناً؟ أترى بنايـة الحصـون خرجت جملة من عـداد الفنون؟ أليست هـي من أقدم ما

---

(1) البلاغ في 6 فبراير سنة 1924.

صنـع الصانعـون وأجدره بتحريـك القلوب واسترعاء العيـون؟ بلى وليست بنفسـ تلك النفس التي لا تبهرها الحياة بألف لـون من ألوانها، ولا يعجبها الفن بألف قالب من قوالبه ولا يروقها الجمال إلا في زي واحد، وإن له لأزياء لا عداد لأشكالها وأصباغها ولا حصر لمواقعها من النفس وآثارها.

فاعـرفْ للمتنبـي مكانه هـذا طائعاً أو غـير طائع، وارفعْ لـه التحية في حصنـه ذاك خاضعـاً أو غـير خاضـع. إنك لا تعـرف إلا حقـاً ولا تقول إلا صدقـاً. أمـا إن خرج الرجل من حيـث وضعته طبيعته وأقرتـه خلائقه إلى حيث يقصف الشعراء غيره ويسمرون ويحتالون في القول ويتظرفون فهنالك ماذا تقول؟ هنالـك اضحكْ منه إن شئت واعجبْ له إن شئت، فالأمر موكلٌ إليـك واللـوم على الحالـين غير عائد عليـك. فقد جنى الرجـل على نفسه ونقض العهـد الذي بينه وبين قارئـه وفارق الشقة الحـرام التي يأمن فيها على وقاره.. وكيف لا تضحك منه حين تراه يحاول التخلص إلى مدح سعيد بـن عبدالله فلا يفتح الله عليـه إلا بأن يمسخ الناس كلهـم بعراناً ليركبهم إلـى سعيد؟ أم كيف لا تغلبـك ابتسامة السخر حين تراه يستطرد من الغزل إلـى المدح فيتوسل إلى الأمير أن يشفع له عند حبيبته ويقول إنه قد أيقن أن الأمير قد برز لقتال تلك الحبيبة الجافية لما رآه معتقلاً رمحه.

عـلَ الأمـير يـرى ذلي فيشفع لي

عند التي صيرتني في الهوى مثلا

أيـقـنـت أن سـعـيـداً طـالـب بـدمـي

لـما بـصـرت بـه بـالـرمـح مـعـتـقـلا!!

أم كيف لا تتمثل لك الصبيانية كلها حين تسمع قوله في مدح فارس شجاع:

إذا استجرأت ترمقه بعيداً
فأنت اسطعت شيئاً ما استطيعا
وإن ماريتني فاركب حصاناً
ومثله تخر له صريعاً!!

وقبل ذلك قوله في التخلص – أو التملص – من الغزل إلى المدح:

أحبك أو يقولوا جرَّ نملٌ
ثبيراً وابن إبراهيم ريعا

أراد أن يقول إن سلوه عن حبيبه مستحيل، وإن ارتياع ممدوحه مستحيل فلم يحسن أن يقول ذلك حتى وضع بينهما جبلاً تجره نملة.. فكان ثالثة الأثافي حقاً!.

وقد رأينا الشيخ اليازجي يعزو الغثاثات المضحكة والمعجمات المستغلقة من شعر المتنبي إلى الحداثة ونقص المران وقلة الخبرة بالصناعة ويقول في الفصل البليغ الذي عقب به على الديوان: (أكثر ما نجدها في أوائل شعره حين لم تستحكم فيه ملكة النظم ولم تطرد له وجوه التعبير.. بل ربما ركب مثل ذلك عمداً لحينه ذاك إذ المرء في أول قرعة لباب الشعر والإنشاء وتسليمه على محضر الأدب قد يدفع نفسه إلى ما هو وراء موقفها ويكلف سجيته ما ليس في مطبوعها تانقاً في الخطاب وتوخياً لمواقع الإحسان والإعجاب، وربما نزع إلى تقيل بعض الكبراء من أهل خطته ومن وقع في نفسه منهم موقعاً جليلاً فيخطو على آثاره ويطبع على غراره تدرجاً إلى مماثلته وتبوء مثل مقامه في الصدور وهذا إنما ينجح حيث يوافق شبهاً من الذوق وميلاً من الطبع فيلتبس بمنتحله حتى يصير من التكرار ملكة راسخة. وما أحسب المتنبي إلا كان في صدر أمره يتوخى طريقة أبي

تمام..) وكل ما ذكره اليازجي صواب في هذا الباب أي في التمحلات والمبالغات التي من قبيل قوله:

ولست بدونٍ يرتجى الغيث دونه
ولا منتهى الجود الذي خلفه خلف
ولا واحد في ذا الورى من جماعة
ولا البعض في كل ولكنك الضعف
ولا الضعف حتى يتبع الضعف ضعفه
ولا ضعف ضعف الضعف بل مثله ألف
أقاضينا هذا الذي أنت أهله
غلطت ولا الثلثان هذا ولا النصف

ومثل هذا كثير في أوائل شعر المتنبي، أما الغثاثات التي مصدرها قلة الفطنة إلى دقائق المناسبات ومغامز الضحك اللطيفة والنقص في تلك الصفات الفنية التي سردناها في صدر هذا المقال فقد صحبته طول عمره وظهرت في أواخر شعره كما ظهرت في أوائله، لأنها في طبعه ومن معدن فكره الذي لا سبيل إلى تغييره.

مثال ذلك قوله في رثاء عمة عضد الدولة التي توفيت ببغداد وهو من آخر نظمه:

لو درت الدنيا بما عنده
لاستحيت الأيام من عتبه
لعلها تحسب أن الذي
ليس لديه ليس من حزبه
أخاف أن تفطن أعداؤه
فيجفلوا خوفاً إلى قربه

يقـول لعل الأيـام تخطئ في ذرع التخوم التي ينتهـي عندها جوار عضد الدولـة فلهذا اعتدت – خطأ – على عمته البعيدة عنه!! ثم يعود فيقول إنه يخشى أن يفطن أعداء عضد الدولة إلى هذا الأمر فيهربوا إلى جواره كي لا يموتـوا. وليسـ أسخف من هذا القول في هذا المقام وأي فرق بينه وبين قوله في أوائل عهده بالشعر:

فخذا ماء رجله وانضحا في المد
ن تأمن بوائق الزلزال!!

فكلاهما من معدن واحد، وفي هذا وذاك دليل على نوع واحد من الغفلة وقلـة الفطنة إلى دقائق المناسبـات ومغامز الضحك. وكأنمـا كان شاعرنا كذلـك الميزان الكبير الذي يزن بالأطنـان، فلا يحسب فيه حساب للدراهم ولا يلتفـت إلى ما يسقط خلاله من هذه الصغائـر والهنات!! ومن الطبيعي مـع هذا الاستعداد أن تقل الفكاهة في شعر المتنبي وأن تخفى عليه الجوانب المضحكـة من أخلاق الناس فلا ينتبه إلـى شيء منها ولا نعثر في كل ديوانه علـى أكثر من قطعتين اثنتين فيهما معنى الفكاهـة والسخر: إحداهما قوله حين (مرّ برجلين قد قتلا جرذاً وأبرزاه يعجبان الناس من كبره):

لقد أصبح الجرذ المستغير
أسير المنايا صريع العطب
رماه الكناني والعامري
وتلّاه للوجه فعل العرب
كلا الرجلين أتلى قتله
فأيكما غل حر السلب
وأيكما كان من خلفه
فإن به عضة في الذنب

وربما كان الأصوب أن هذه القطعة ضمنت من الخيلاء والفخر بالشجاعة وازدراء الجبن أكثر مما ضمنت من روح الفكاهة البريئة والدعابة الذكية. أما القطعة الأخرى فهي التي نظمها في الرد على ذلك الشاعر الذي أرسل إلى سيف الدولة أبياتاً يزعم أنه ألهمها في النوم فقال المتنبي يجيبه:

قد سمعنا ما قلت في الأحلام
وأنلناك بدرة في المنام
وانتبهنا كما انتبهت بلا شيء
فكان النوال قدر الكلام

وظاهر من القصة أن هذا الرد كان من إيحاء سيف الدولة ونظم بأمره وإرشاده لأننا لا نظن المتنبي يستجيز لنفسه أن يرد على شاعر قصد الأمير بغير إذنه. ولا نحسب سيف الدولة قد رفض إجازة ذلك الشاعر المتناوم إلا لما رآه في قصته من الغفلة المضحكة التي أوحت إليه بذلك الجواب المناسب لها.

وما خلا هاتين القطعتين فمن الفلتات العرضية التي تجيء هنا وهناك ولا تنم على ملكة أصيلة أو على التفات خاص إلى هذا الجانب من المعاني. فإذا رأينا المتنبي يضحك في شعره أحياناً فإنما هو ضحك غليظ خشن لا تأنس فيه مدخلاً خفيًّا ولا تحس منه غمزة لطيفة كتلك الغمزات التي يدب عليها الشعراء الساخرون، وما في شعر المتنبي من بواعث الضحك غير ما سبقت الإشارة إليه إلا ما يضحك منه هو لا ما يضحك من الناس أو من الدنيا.

على أن مما يشرف المتنبي ويعوضه من هذا النقص أنه كان لا يتعمل ولا يتكلف إلا في المواضع التي لا تحمد المهارة فيها ولا يدل حذقها على خلق عظيم أو قدرة نبيلة. فأكثر ما يتعمل المتنبي في مبالغات المدح المأجور، وأكثر ما يكون ذلك اضطراراً لمرضاة الممدوحين والجري على هوى أولئك

المخدوعـين. ومـاذا عساه كان يصنـع في ذلك الزمن وقد كانـوا لا يرضون عـن الشاعر ولا تشبع نهمتهم من المـدح إلا أن يمدحهم بما لا يُمدح به أحد قبلهـم وأن يعمد إلى أقصى ما بلغه الشعراء من الغلو فيضاعفه لهم؟ فكان للمتنبي بعض العذر إذا هو تعسف في المدائح وتكلف في مبالغاتها وتمحلاتها أو فيما يساوقها ويطرد مع نغمتها من دعاوي العشق وأكاذيب الغزل المهدة لهـا. أما شعـره في الحكمة والفخر فقد كان مثـلاً في خلوص الطبع ونصوع المعنى وتماسك العبارة وسلامة الأسلوب. مما يدل على أن الرجل طبع على الحكمـة والاستقـلال ولم يطبع علـى الملق والابتذال، وأنـه كان يخطئ حين يعصي طبعه ويصيب حين يطيعه ويستملي وحيه.

بـل نزيد على ذلـك أن الإجادة كانت دأب المتنبي في كل شعر نظمه بغير اضطـرار من ظـروف العصر الذي عاش فيه. فكانت لـه إجادات في الغزل والوصـف وغيرهمـا من مذاهـب الشعر كمـا كانت له إجـادات في الحكمة والفخر. ثم كان أبرأ الشعراء من وصمة البهرجة والتزييف وأنقاهم صفحة من تلك المحسنات التافهة التي ولع بها ضعفاء القرائح من شعراء المولدين. ولا حاجـة بشاعـر إلى شهـادة فوق هـذه الشهـادة بفحولة الطبـع وصدق القريحة ومناعة الذوق.

والخلاصة أن المتنبي كان فناناً على طريقته التي تناسبه من الفن، وأنه قد ظفر من المعاني بجمال السلامة والبساطة ورواء الصحة والقوة وتناسب المتانة والكفايـة؛ أما جمال الزينة والرشاقة ومحاسن التطرية والأناقة فلم يكن له منها نصيب وافر.

مع المتنبي

الشاعر الذي لا نعرفه بشعره لا يستحق أن يعرف

لأن كلام الشاعر هو الصلة الكبرى بيننا وبينه، وإن لم يكن هذا الكلام معبرا عن نفسه واصفا لها ممثلا لشعورها فليس هو بطائل، وإن كان معبراً عن النفس مستجمعاً لصفاتها وأطوارها فهو حسبنا من معرفة بالشاعر وترجمة لحياته، لا يزيد عليها التاريخ إلا ما هو من قبيل التفصيل والتفسير، أو من قبيل الحشو والفضول.

لهذا نعتقد أن صديقنا الدكتور طه حسين قد اعتمد على خير معتمد حين شرع في الكتابة عن المتنبي وليس معه غير ديوانه، فإننا إذا عرفنا المتنبي كما هو ماثل أمامنا في قصائده وأقواله لم يبق وراء ذلك من حقيقة الرجل إلا ما يتشابه بينه وبين سائر الناس. وقد يجوز أن يقيم أناس في حلب كما أقام فيها أبو الطيب، وأن يرحلوا إلى مصر كما رحل إليها، وأن تتوارى أنسابهم وأسماء آبائهم وأمهاتهم كما توارى كل ذلك في ترجمة حياته. ولكن الذي لا يجوز أن يتشابه فيه صاحبنا وغيره من الناس قديما وحديثا هو هذا الديوان أو هو أجزاء هذا الديوان متفرقات أو مجتمعات.

قال الدكتور في ختام الكتاب: (وأكثر من هذا أني أخذت أرى رأياً ما أظن إلا أن كثيراً من الناس سيضيقون به ولعلهم أن ينكروه عليّ، وقد ضقت به أنا وأنكرته على نفسي. ولكني لم أزدد إلا إمعاناً فيه واطمئناناً إليه وتعجباً من أني قد انتظرت هذه السن وهذا الطور من أطوار الحياة قبل أن أفطن له، أو أطيل التفكير فيه، وهو أن شعر المتنبي لا يصور المتنبي، وأن شعر الشعراء لا يصور الشعراء تصويراً كاملاً صادقاً يمكننا من أن نأخذهم منه أخذاً مهما

نبحث ومهما نجد في التحقيق، وما أريد أن أطيل الاستدلال على ذلك، ولا أسلك إلى هذا الاستدلال هذه الطرق الملتوية التي يسلكها الفلاسفة والعلماء والأدباء أيضاً، وإنما أريد أن ألفتك إلى شيء يسير، وهو أن صور شيئاً فإنما يصور لحظات من حياة المتنبي، كما أن هذا الكتاب الذي بين يديك إن صور شيئاً فإنما يصور لحظات من حياتي أنا لا أكثر ولا أقل).

وهذا كله صحيح...

ولكنه ينتهي إلى نتيجة غير التي انتهى إليها الدكتور.

ديوان المتنبي وديوان من شئنا من الشعراء لا يصور إلا لحظات من حياتهم، نعم، ولكنها اللحظات التي تعنينا، واللحظات التي نعرفهم بها، واللحظات التي لا شأن لنا بغيرها.

كذلك وجه الإنسان لا يمثل لنا إلا جزءاً يسيراً منه لا يبلغ نصف معشاره، ولكنه هو الجزء الذي نعرفه به بين عشرات الملايين ممن عاشوا أو يعيشون على هذه الغبراء، ولحظات الحياة التي يمثلها شعر الشاعر إنما هي اللحظات التي تعرفنا به أكمل تعريف مستطاع فإن هي لم تفلح في تعريفنا به فليس شيء غيرها بمفلح على الإطلاق، ولا سبيل إلى شيء وراء ذلك يعرفه الإنسان عن الإنسان.

وعلى هذا يحق للدكتور أن يطمئن إلى رأيه فلا يضيق به ولا يخشى أن يضيق به الناس، فنحن لا نبغي من المتنبي ولا من غيره إلا هذه اللحظات المعدودات. ولو أننا عرفنا لحظات حياته منذ استهل مولوداً إلى أن لفظ النفس الأخير مقضياً عليه، لما زادتنا كثيراً عن هذا الجزء المحدود الذي حصره لنا الديوان، ولوجدنا بعض أن جمعنا ملايين الملايين من اللحظات

أننـــا لم نعـــرف بها المتنبي كما نريد أن نعرفه، بل عرفناه تارة حيواناً يهضم الطعـــام كما يهضمـــه سائر الحيوان، وتارة أخرى عروقـــاً تنبض كما تنبض سائـــر العـــروق، وتـــارة غير هـــذه وتلك رئتـــين تتنفســـان كما تتنفســـ سائر الرئـــات، وقس على ذلك جميع التارات وجميع اللحظـــات، أما المتنبي الذي نبغيه فسيظل هو المتنبي المعروف في ديوانه بلا زيادة ولا نقصان، أو بزيادة عرضية ونقصان ليس بذي بال.

نعم إن الشاعر قد يغالط في بعض كلامه، بل قد يغالط في جميع كلامه. ولكـــن المغالطـــة تكشفه ولا تخفيه، وتعين على معرفتـــه أضعاف ما تعين على جهلـــه: تكشفـــه على الأقل إنســـاناً مغالطاً وتكشف لنا بعـــد ذلك طريقته في المغالطـــة وفي حيلهـــا وأساليبها وأغراضها؛ وتبدي لنـــا منه صورة يتميز بها بين الصور جهد ما يستطاع التمييز.

فصحيـــح إذن أن شعـــر المتنبـــي إن صور شيئاً فإنمـــا يصور لحظات من حياتـــه، ولكن صحيح كذلك أنه إذا صور لنا هذه اللحظات فقد صور لنا كل ما نبغيه وأوفى ما يبلغه التصوير.

ويقـــول الدكتـــور طه في صـــدر الكتـــاب: (لا أريد أن أدرســـ المتنبي، إذن فالذيـــن يقرؤون هذه الفصـــول لا ينبغي أن يقرؤوها علـــى أنها علم ولا على أنها نقد، ولا ينبغي أن ينظروا منها ما ينتظرون من كتب العلم والنقد، وإنما هي خواطر مرسلة تثيرها في نفسي قراءة المتنبي في قرية من قرى الإلب في فرنسا، قراءة المتنبي في غير نظام ولا مواظبة وعلى غير نسق منسجم، إنما هي قراءة متقطعة متفرقة..).

والـــذي أعتقـــده أن الدكتور لو تعمـــد (العلم والنقـــد) واصطحب المطولات والحواشي والتعليقات لما أضاف في دراسة المتنبي شيئاً هو خير من هذه الخواطر

المتفرقة والفروض المحتملة، وأرى أنه قد رجع إلى بعض الكتب المفصلة بعد أن شـرع في كتابه على نية غير نية الدراسة العلمية والنقد الممحص الدقيق ولكنه أحسـن بفروضه أكـثر من إحسانه بمنقولاته ومروياتـه، وألمع في هذه الفروض إلـى آراء شتى خليقة بالتأمـل والمتابعة إلى أقصى وجوهها، ولا سيما كلامه في صلـة المتنبي بالقرامطة، وحقيقة الدعوة الدينيـة والاجتماعية التي كان يدعو إليهـا، فهـذه وأمثالها فروضـ لم يرسلها الدكتور على أنهـا وقائع ولا على أنها ترجيحـات ولم يعطها من القيمة في معرضـ الدرس أكثر مما تعطاه الخواطر المحتملة، إلا أنها مع هذا خواطر هادية وليست بالخواطر المضللة، أو هي ظنون في الطريـق المؤدي إلى الغاية وليست ظنوناً في الطريق المنقطع عن تلك الغاية، وهـذه هي الإضافـة المشكورة إلى ذخـيرة الفهم والأدب والتفكـير، وهي بهذه المثابة أنفس من إحصاء المعلومات واستعراض الآراء من هنا وهناك.

***

ويطول بي القول إن أنا سردت في هذه المقال ما نتفق فيه بعض الاتفاق أو كل الاتفاق، فالرأي إذن أن ألم بمواضع الخلاف وهي غير قليلة في الكتاب، وأكتفـي بالإشارة إلى نماذج منها معظمها في الحكم على صناعة المتنبي أو في الحكم على ذوقه وطبعه، فهي من ثم بمعزل عن جانب الفرض والتاريخ:

روى الدكتور هذين البيتين من شعر المتنبى في صباه:

بـأبـي مـن وددتـه فـافـترقـنـا
وقـضـى الله بـعـد ذاك اجـتـمـاعـاً
فـافـترقـنـا حـولاً فـلـمـا الـتـقـيـنـا
كـان تـسـلـيـمـه عـلـي وداعـاً

ثم قال: (أعجب الفتى بهذا المعنى فأراد أن ينظمه وأن يصل إليه فتكلف

لذلك بيتاً ونصـف بيت، وأنت ترى مظهر التكلف في قوله: (بأبي من وددته فافترقنـا) .. فكلمة وددته هنا نابية قلقـة مكرهة على الاستقرار في مكانها الـذي هي فيه، وأراد الصبـي أن يقول أحببته فلم يستقم له الوزن، فالتمس كلمة تؤدي له هذا المعنى وتلائم هذا الوزن فلم يجد إلا وددته هذه ..).

والخـلاف بيننا وبين الدكتور في طريقة النقد هنا جد بعيد، فنحن نرى من جهة أن أبا الطيب لو أراد أن يقول (أحببته) بدلا من (وددته) لاستقام لـه الوزن مع بعض التجوز الكثير في الشعر المقبـول في العروض، ونرى من جهـة ثانيـة أن أبا الطيب كان مستطيعاً أن يستخـدم هنا (حببته) الثلاثية بدلاً من أحببته الرباعية كما استخدمها في قوله وهو شاعر كبير:

حببتك قلبي قبل حبك من نأى

وقد كان غـداراً فكن أنـت وافيا

فـلا ضـرورة في الـوزن ولا استكراه. وفضـلاً عن هذا لا نظـن كثيرين يحسبون مع الدكتور أن (وددته) في موضعها من البيتين لا تعبر عن معناها الصحيـح الـذي لا تعبر عنه كلمة غيرهـا، فالمودة هي الكلمـة العربية التي تقابل كلمة (Tendresse) في الفرنسية. وتطابق معناها تمام المطابقة، وهو ذلك الحب الرفيق الذي فيه حنو وشوق وليس فيه عنف ولا اعتلاج، وليست في اللغـة العربيـة كلمة هـي أصلح لهذا المعنـى من (وددته) التـي اختارها الشاعـر، وليجرب الدكتور أن يغيرها في كلام منثور فسيعلم أن هذه الكلمة في نظم المتنبي الصبي هي أشبه الكلام بنظم المتنبي الكبير.

ومـن المحقق أن (المودة) ومشتقاتهـا ليست من الكلمات التي يلجأ إليها شاعرنـا اضطـراراً أو لعجز في الوزن والصياغة، فهـي مألوفة في قصائده العديـدة وتكاد تكون لازمة في التعبـير عن الحب بشتى معانيه، ونذكر أمثلة

على ذلك منها قوله:

وما الخل إلا من أود بقلبه
وأرى بطرف لا يرى بسوائه

وقوله:

وكل وداد لا يدوم على الأذى
دوام ودادي للحسين ضعيف

وقوله:

وإن بليت بود مثل ودكم
فإنني بفراق مثله قمن

وقوله:

ولما صار ود الناس خبا
جزيت على ابتسام بابتسام

وقوله:

إذا لم تجزهم دار قوم مودة
أجاز القنا، والخوف خير من الود

وقوله:

ولقد منحت أبا الحسين مودة
جودي بها لعدوه تبذير

وقوله:

مالي لا أمدح الحسين ولا
أبذل مثل الود الذي بذله

وقوله:

ولا تطمعن من حاسد في مودة
وإن كنت تبديها له وتنيل

وقوله:

منع الود والرعاية والسؤد
د أن تبلغا إلى الأحقاد

وقوله:

أود من الأيام ما لا توده
وأشكو إليها بيننا وهي جنده

وقوله:

هو الوفي ولكني ذكرت له
مودة فهو يبلوها ويمتحن

وقوله:

سقاني الخمر قولك لي بحقي
وود لم تشبه لي بمذق

وقوله:

اقصر فلست بزائدي ودًا
بلغ المدى وتجاوز الحدا

وقوله:

صار ما أوضع المحبون فيه
من عتاب زيادة في الوداد

وقوله:

فما تركوا الإمارة لاختيار
ولا انتحلوا ودادك من وداد

ومثل هذا التكرير لهذه الكلمة جدير بالتسجيل لأنه ذو دلالة نفسية فوق دلالتـه الصناعيـة أو اللغوية، فهو يدل على افتقار الشاعـر طول حياته إلى الود والأوداء حتى قنع بالتزييف والطلاء كما قال:

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا
وحسب المنايا أن يكن أمانيا
تمنيتها لما تمنيت أن ترى
صديقاً فأعيا، أو عدواً مداجيا

وهي ظاهرة لا نظير لها في عامة الشعراء.

وعـاب الدكتور هذه الشطرة: (أبلى الهوى أسفاً يوم النوى بدني) فقال: (إن أسفـا هنا كلمة لم تأت إلا لتقيم الـوزن، ونبوها عن موضعها أظهر من أن يدل عليه).

وعندنـا أن الطريقة المثلى لتحقيـق الكلام الذي تجيء به ضرورة الوزن أن نحـذف الكلمة وننـثر البيت وننظر بعد ذلك إلى قـوة المعنى وقوة الأثر. فإن بقيت للمعنى قوته وبقي له أثره فالكلمة المحذوفة حشو لا موجب له غير إقامـة العروض. فهل (أسفاً) في الشطرة التـي عابها الدكتور من الكلمات التي يصدق عليها هذا القياس؟ لا نظن. بل هي كلمة تتعلق بها كل قوة البيت كما تتعلق بها نغمته الموسيقية ودلالته في الشعور بسبب البلى يوم النوى وهو الأسف والحسرة.

وأنكر الدكتور على المتنبي قوله:

حاشـى لمثلك أن تكون بخيلة
ولمثل وجهك أن يكون عبوساً

ولمثل وصلك أن يكون ممنعاً

ولمثل نيلك أن يكون خسيسا

فقال: (ولست أدري بأي امرأة أراد المتنبي أن يشبب في هذين البيتين؟ وما أرى إلا أنه كان يشبب بمن لا يحسن التشبيب بها من النساء. فالمرأة التي ترتفع عن البخل ويرتفع وصلها عن التمنع ليست خليقة بالشعر إلا حين يقصد إلى هجائها).

وأنا لا أبرئ المتنبي من (قلة الذوق) في كثير من شعره، ولكنني لا أحسب هذين البيتين بين الشواهد على قلة ذوقه، لأنه قد بين فيهما أن نيل صاحبته غير خسيس فهو إذن ليس بالنيل المبذول لجميع الناس، ومتى كان كذلك وكان نيلاً موقوفاً على صاحبها فأي ضير على هذا الصاحب أن يلومها على البخل ويطمع منها في المزيد؟

والدكتور يعتقد أن المتنبي دخل في طور جديد من نظمه بقصيدته التي أولها:

أزائـــر يا خيال أم عائد

أم عند مولاك أنني راقد

لأنه كما قال: (يصرع في القصيدة الواحدة مرة أو مرتين. أما في هذه القصيدة فهو يصطنع التصريع مرات).

ولو رجع الدكتور إلى البائية التي مطلعها:

بأبي الشموس الجانحات غواربا

اللابسات من الحرير جلابيا

لوجد فيها غير المطلع خمسة أبيات مصرعة، وهي مما نظم في عهد الشباب.

والدكتـور يرى أن المتنبي كان يشير إلى اعتقال كافور إياه في مصر حين قال يمدح أبا شجاع:

وإن تكن محكمات الشكل تمنعني

ظهور جري فلي فيهن تصهال

فهو كما قال الدكتور: (لم يستطع أن يخفي تأذيه بهذا السجن الذي يمسكه في الفسطاط)، وهذا هو (الشكل المحكم) الذي عناه في البيت المتقدم.

وعندنا أن التفسير الشائع لذلك البيت أصح وأدل على ما عناه الشاعر: وهو أنه لم يستطع من جزاء أبي شجاع إلا أن يمدحه بالكلام، إذ لم يكن لديه جزاء المال والحطام، وكأنه في هذه الحالة جواد مقيد لا يملك غير الصهيل ولو أنه يقصد حبس كافور إياه لكان معنى البيت أنه يصهل ويمدح أبا شجاع لأنه لم يستطع الجري من سجن كافور!! وليس المدح بمستقيم على هذا المعنى.

***

أما أخلاق الشاعر فموضع الخلاف عليها بيني وبين الدكتور أنني أقرب إلى جانب العذر وأن الدكتور أقرب إلى جانب الملام، فهو لم يتهم الرجل بخلق ليس فيه، ولكنه لم يطلب له العذر حيث تتضح معاذيره، ولم يزل يشيد في تفنيده ويجتهد في اتهامه حيث يكون الاضطرار أغلب على الرجل من الاختيار.

وما من شك في تهور المتنبي وطمعه فهما خليقتان من خلائقه المشهورة. بيد أن الشك كل الشك في استحقاقه اللوم لأنه ترك سيف الدولة ورحل إلى كافور، وما أنصفه الدكتور ولا استوضح عذره حين قال: (إن الذين

يقــرؤون شعر المتنبــي وهذه الحكم البالغــة والأمثال السائــرة التي يرسلها إرســالاً ويكيلهــا كيلاً يخدعــون عن الشاعــر فيظنون به الفطنــة والحكمة والــذكاء، ولكن الذيــن يتدبرون سيرتــه، ويقرؤون فخره ومدحــه وهجاءه. ويعرفــون طبيعــة الشاعر ويردونــه إلى مكانه الحقيقي مــن خصال الرجل الذكــي اللبــق.. وإلا فكيف نفهــم أن ينفق المتنبــي تسعة أعــوام يمدح فيها الأمير الحمداني ويعيب فيها خصومه من أهل مصر والعراق. ثم يظن بعد ذلك أن المصريين يعدونه صادقين ويبذلون له الآمال وهم يأخذون أنفسهم بالوفــاء له والاطمئنان إليه. مهما يكن من شــيء فقد انخدع المتنبي لكافور وأقبل مستسلماً له متهالكاً عليه واثقاً به).

ولو شاء الدكتور لما حار في فهم هذا أقل حيرة، ولفهم أن صاحبنا مكره لا حيلــة لــه فيما صنع، وأنه لم يكن له بد من قصد كافور بعد أن هموا بقتله في جــوار سيــف الدولة مرة وبعد أن رخَّص سيف الدولة في قتله مرة أخرى، وبعــد أن شجُّوا رأسه بمحضر الأمــير مرة ثالثة، وبعد أن علم أن ذهابه إلى بغــداد أو الكوفة غير مأمون ولا مأمول فليكن بعــد ذلك كله أحكم الحكماء وأصدق الطامعين، فما هو إلا مدفوع على الرغم منه كما قال (ومدفوع إلى السقم السقيم).

ومــا من شك كذلــك في بخل الرجل وحرصه الشديــد على المال، ولكننا نجور عليه ولا شك إذا زعمنا أنه بلغ بالبخل حد الإجرام والاستهانة بالنفس البشريــة وأن الشيء الخطير حقاً كما قال الدكتــور (هو إقدام المتنبي على القتــل في سبيــل ما كان يسرق هــذا العبد من متاعه. فذلــك لا يصور بخله وحرصه على المال فحسب، وإنما يصور ما هو شر من هذا. يصور استهانته بالحيــاة الإنسانية، واستباحته الدم الإنساني في سبيل متاع يقوم بالدراهم

والدنانير، وأقل ما يوصف به هذا الإثم أنه لا يصور نفساً شاعرة ومتحضرة رقيقة الحس متأثرة بالفلسفة فضلاً عن الدين الذي لا يبيح دماء الناس في مثل هذه الصغائر، ولو أن حياة المتنبي كلها خلت من النقائص والعيب لكانت هذه الحادثة وحدها خليقة أن تسبغ عليها لوناً أحمر قانياً يُبَغِضُها ويُبَغِض صاحبها إلى الناس).

كلا! إن المتنبي لا يستحق كل هذا، وأنه لم يقتل ذلك العبد بخلاً وحرصاً على دراهم ودنانير، وإنما قتله خوفاً على حياته وخشية من تمادي الشر واجتراء عبيده على اغتياله بعد اجترائهم على سرقة ماله، وأي مناص للمتنبي من هذه الفعلة وهو هارب من السلطان متفرد في البوادي متعرض للانتقاض، ولا حارس له ولا مطالب بدمه غير أولئك العبيد الذين بدؤوا يطمعون في ماله واحتاجوا أسرع الحاجة إلى الزجر والصرامة والتخويف؟ إنما الوجه أن نلتمس حادثاً آخر أقدم فيه المتنبي على القتل وهو آمن مستقر في سربه خشية على الدراهم والدنانير. أما فعلته هذه فعلة الناجي بنفسه الخائف من سطوة لصوصه، ولا ملامة على من يفعلها مكرهاً في شرع القانون ولا في شرع الأخلاق.

ولقد أطلنا ولا حد للكلام في نقائض المتنبي ونقائض الآراء في شعره وطباعه. فلنقل موجزين إنه رجل ذو فضائل وذو عيوب، وأنه شقي بفضائله في ذلك الزمن الموبوء أكثر من شقائه بعيوبه وما من أحد يسمع قوله بل صرخته:

أما في هذه الدنيا كريم
تزول به عن القلب الهموم

أمـــا في هـــذه الـدنـيـا مـكـان
يـســر بـأهـلـه الجـــار المقـيـم
تـشـابـهـت الـبـهـائـم والـعـبـدى
عـلـيـنـا والمـــوالي والـصـمـيـم
ومـــا أدري إذا داء حـديـث
أصـــاب الـنـاس أم داء قـديـم

إلا رأى مــن ورائها بليته بالناس أعظم من بليتهم به، وظلمه للناس دون ظلمهم إياه واستحقاقه للعذر أكبر من استحقاقه للملام.

شخصية المتنبي في شعره

(.. فهو حيث قلبت من حكمته أو فخره أو غزله أو رثائه،

هو هو المعتد بفضله، الفاشل في أمله، الساخط على زمنه..)

شخصيــة المتنبــي التي نعرفها في شعره هي شخصيتــه التي نعرفها من تاريخه وتاريــخ عصره، وقد كان عصره عصر مغامــرات ودعاوى سياسية ودعــاوى دينية وخصومــات مذهبية وشكوك جاءت مــن التفكير والاطلاع، وشكــوك جــاءت من اللجاجــة في المناقشة والحــوار. وكان أناس من طلاب المناصــب يرتقــون في ذلــك العصر كمــا ارتقــوا في العصور التــي قبله إلى مناصــب الوزارة وليســت لهم من شفاعــة في الظاهر غير شفاعــة الكتابة والأدب. فكان في العصر ما يغري الأديب المغامر بالتطلع إلى جاه الدنيا من طريق المغامرة، ومن طريق البراعة الأدبية.

وكان المتنبي رجلا لا يعوزه الاعتداد بالنفس ولا الطمع في الجاه ولا ملكة البلاغــة والقدرة على المنظوم والمنثور مع شيء مــن الفروسية كما ثبت من مجمــل تاريخه ومجمــل كلامه. فالشعر الذي نقــرؤه في الديوان لا يستغرب من الشاعر الذي نظمه ولا من الرجل الذي علمنا بسيرته من أنباء الراوين عنه، و(شخصيته) ماثلة هنا وهناك على صورة واحدة جلية متفقة لا تعقيد فيها ولا تنافر بين القول والحقيقة.

وقــد غلبت هذه الشخصية حتى لا تشابــه بينها وبين شاعر آخر في باب من الأبواب ولو تشابه العنوان والموضوع.

فالمتنبي متشائم، والمعري متشائم، ولكن الفرق بين المذهبين في التشاؤم كالفــرق بين شخص المتنبــي وشخص المعري في المــزاج والخليقة والمطلب،

وهو دليل على صدق الشخصية الشعرية عند كل من الشاعرين الكبيرين.

فالمعـري متشائم لأنه حكيـم يتدبر أحوال الخلق ويرثـي لما هم فيه من الجهالة والشقاء لغير مأرب يريده إلا التأمل والحكمة.

والمتنبي متشائم لأنه صاحب رجاء خاب في الناس على غير انتظار، ولو لم يخب هذا الرجاء لما كان من المتشائمين.

والمعـري ينظر إلى الناس في جميـع الأزمان والأجيال لأنه يطلب المعرفة والعلم بالنفس الإنسانية.

والمتنبـي ينظر إلى الناسـ في عصره ولا يعمم الحكم على الناس جميعاً إلا لما أصابه من زمانه وأهل زمانه، وذلك هو الفرق بين من يدرس الإنسان لتحقيـق بحـث ومن يدرسـ الإنسـان لتحقيق أمـل، أو ذلك هـو الفرق بين الحكيمين المتشائمين والمذهبين المتباعدين جد التباعد على تقارب الكلمات والأسماء.

ولهذا يقول المعري:

كـم وعـظ الـواعـظـون منـا
وقـام في الأرضـ أنـبـيـاء
وانـصـرفـوا والـبـلاء بـاق
ولم يـزل داؤك الـعـيـاء
حـكـم جـرى لـلـمـلـيـك فـيـنـا
ونـحـن (في الأصـل) أغـبـيـاء

أي نحـن (بني الإنسان) أجمعين، وهـو منهم، كما صرح في موضع آخر حيث قال:

كلاب تغاوت أو تعاوت لجيفة

وأحسبني أصبحت ألأمها كلبا

أو قال:

بني الدهر مهلاً إن ذممت فعالكم

فإني بنفسي لا محالة أبدأ

أما المتنبي فمعظم تشاؤمه - بل تشاؤمه كله في جوهره - من قبيل قوله:

أود من الأيام ما لا توده

وأشكو إليها بيننا وهي جنده

أو من قبيل قوله:

أريد من زمني (ذا) أن يبلغني

ما ليس يبلغه من نفسه الزمن

أو قوله:

وإنما نحن في جيل سواسية

شر على الحر من سقم على بدن

حولي بكل مكان منهم خلق

تخطي إذا جئت في استفهامها بمن

لا أقتري بلداً إلا على غرر

ولا أمر بخلق غير مضطغن

ولا أعاشر من أملاكهم ملكا

إلا أحق بضرب الرأس من وثن

إني لأعذرهم ممَّا أعنفهم

حتى أعنف نفسي فيهم، وأني

أو قوله:

وقت يضيع وعمر ليت مدته
في غير أمته من سالف الأمم
أتى الزمان بنوه في شبيبته
فسرهم وأتيناه على الهرم

أو قوله:

ومن عرف (الأيام) معرفتي بها
وبالناس روى رمحه غير راحم

فهو يتشاءم لعلة عارضة وهي أن زمانه وأهل زمانه لا ينيلونه ما ينشده من الجاه. ومن هنا كان الذنب عنده ذنب جيله ولا شأن له فيه. أما المعري فكان أصيلاً في تشاؤمه لا يعيب أبناء جيله خاصة إلا لأنهم جزء من الناس أجمعين منذ كان آدم إلى أبد الآبدين. ولعل المتنبي لو نظر إلى الإنسان هذه النظرة لخرج من التشاؤم إلى التفاؤل، لأن رجاءه أن ينال على أيديهم ما ناله أمثاله ومن هم دونه في اعتقاده، دليل على أنه يرى الشأن فيهم أن يعدلوا ويعترفوا بالفضل ويعطوا ذا الحق حقه، ولو كان متشائماً بطبعه لما عجب لفساد طباعهم وحاجة المرء بينهم إلى الدس والخداع والحيلة وإرضاء اللبانات والشهوات، وما من رجل يعتقد أنه صاحب حق ويعجب لفواته إلا وهو أقرب إلى التفاؤل منه إلى التشاؤم.

***

وهذه الشخصية ظاهرة في شعر المتنبي كله ظهورها في حكمته وتشاؤمه، ونعني بها شخصية الطامع المغامر المعتد بنفسه: فهو يتغزل كما يفخر ويصف كما يشكو أو يتهكم، وأعجب من هذا أنه يمدح أبطاله على هذا

النحو، فيقول وهو في معرض العتاب والاسترضاء لسيف الدولة:

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا
بأنني خير من تسعى به قدم
أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي
وأسمعت كلماتي من به صمم

إلى أن يقول:

الخيل والليل والبيداء تعرفني
والسيف والرمح والقرطاس والقلم

والعادة في المدح – بله الاسترضاء – أن يتضاءل المادح ليرفع من قدر الممدوح، ولكن (لكل امرئ من دهره ما تعود) كما قال.

ويرى بعض الناقدين تناقضاً بين طموح المتنبي وتعاظمه وبين طلب النوال من الأمراء والبخل الشديد الذي شاع عنه، ولا تناقض بين الحالتين كما قد يلوح لنا الآن، لأن نوال الأمراء كان حقاً للشاعر في ذلك العصر لولاه لما استطاع الشعراء الحياة، ومع هذا لم يكن المتنبي يبتذل حقه في مواقف المدح ولم ينزل إلى مدح كل طامع في قصيده، ولا رضي لنفسه مع الذين ارتضاهم لمديحه مقاماً دون مقام الحفاوة والكرامة، فينشدهم الشعر وهو جالس أو يقف لديهم وقفة التجلة والمهابة. ومنهم من كان يتخلى له عن مكانه ويجلس بين يديه في مقام المادح من الممدوح، ومع هذا وذاك لم ينس غضاضة النوال ولم يسكن إلى دوام هذه الحال، لأنه يريد أن يكون مشكوراً لا شاكراً لذوي الدسوت والأموال:

إذا الفضل لم يرفعك عن شكر ناقص
على هبة فالفضل فيمن له الشكر

ولا يغيبن عنا أن الإنسان لن ينكر على نفسه طلب الجاه إذا علم فيها عيباً من العيوب، لأنه يجابيها ويلتمس لها المعاذير ولا يحاسبها كما يحاسبها خصومه أو أصدقاؤه. فإذا فرضنا أن المتنبي كان بخيلاً فليس من اللازم أن يعترف بالبخل على نفسه، وإذا فرضنا أنه اعترف عليها بهذه الخلة فليس من اللازم أن يلومها ولا يجتهد في تمحل أعذارها، وإذا فرضنا أنه لامها فليس من اللازم ولا من المعقول أن يعاديها ولا يتمنى لها ما يتمناه المحب لحبيبه فضلا عن نفسه، ولا سيما حين يقارن بينه وبين من بلغوا المجد والإمارة، فيرى فيهم عيوباً شراً من عيوبه. وقد يتخذ الرجل من الطموح إلى المجد عذراً لاقتناء المال كما قال:

ولا ينحلل في المجد مالك كله

فينحل مجد كان بالمال عقده

فالبخل والفخر لا يتناقضان، بل لا يتناقض البخل وعلو الهمة والمغامرة لما هو معروف من اشتهار كثير من عظماء الدول بالتقتير الشديد الذي يخرج عن حد التدبير، وأن حيلة النفوس في تمليق أصحابها لتجعل العظمة عذراً للنقيصة وتُسَوِّغ البخل كأنه ضرورة لا محيص عنها لنجاح المغامر الطموح فيما يتمناه.

***

ولقد سَرَت شخصية المتنبي في ألفاظه وعباراته فضلاً عن أفكاره ومعانيه، فالولع بالتصغير الذي لوحظ عليه هو عندنا من لوازم مزاجه المتكبر المغيظ من فوات رجائه، وأكثر ما يُصَغِّر المتنبي – كما لاحظنا في بعض فصولنا – حين يهجو مغيظاً أو يستخف متعالياً كما قال في كافور:

أولى اللئام كويفير بمعذرةٍ
في كل لؤمٍ وبعضُ العذرِ تفنيدُ

أو كما قال فيه:

نويبية لم تدر أن بنيها النو
يبي دون الله يعبد في مصرا

أو كما قال في الشعراء الذين يزاحمونه:

أفي كل يوم تحت ضبني شويعر
ضعيف يقاويني قصير يطاول

وكل تصغيره من هذا القبيل هو تصغير من يضيق صبره بالسخط والأنفة والكبرياء فيعاف أن يذكر الأشياء والناس إلا بأهون ما يستطيع في صيغة لفظه بعد التهوين في مدلول هجائه ومعناه.

***

ولولا أننا لا نريد أن نكرر ما أسلفناه في غير هذا المقال لأكثرنا من الشواهد على المطابقة بين شخصيته وكلامه من غزله ووصفه وأمثاله، ولكن الإشارة هنا تغني في المراجعة، وما على القارئ إلا أن يتناول ديوان المتنبي ويفتحه على ما شاء من صفحة أو بيت فلن يجد بيتاً واحداً يستغربه من تلك الشخصية كما عرفناها في تاريخه وفي جملة كلامه، فهو حيث قلبت من حكمته أو فخره أو غزله أو رثائه هو هو المغامر المعتد بفضله الفاشل في أمله الساخط على زمنه الذي لا ينسى شأنه، حتى حين يعزي المحزون في مصابه، وما ظنك برجل يعزي محزوناً في فقيد فيقول له:

لا يحزن الله الأمير فإنني
لآخذ من حالاته بنصيب

بل ما ظنك برجل ينطق حصانه كما قال:

يقول بشعب بوان حصاني
أعن هذا يسار إلى الطعان
أبوكم آدم سن المعاصي
وعلمكم مفارقة الجنان

لكأنما كان حصان المتنبي حصاناً متنبياً يخاطب أبناء آدم مدلا بالحيوانية ناظراً إليهم نظرة الحكيم إلى الحمقى والعليم إلى الجهلاء.

أفيستطيع هذا الرجل أن ينسى نفسه أو يخفي (شخصيته) أو يكون غير ما كان أو يقول غير ما قال؟

إن الناقدين لا يوجبون على الشاعر أن يكون إنساناً خيراً مما هو لتتم لـه ملكة الشاعرية ولكنهم يوجبون عليه أن يكون شعره ترجمان (إنسانه) وصورة حياته، وهكذا كان المتنبي الشاعر حيث عمل وحيث قال. فَأَحْبِبْ ما شِئْتَ من خلائقه وأبغِضْ ما شِئْتَ منها. ولكن بعد أن تلقي ميزان الشعر وتأخذ بميزان الشريعة أو ميزان يوم القيامة!

في ذكرى المتنبي (1)

(1)

كتب الأستاذ عبد الرحمن صدقي عن (جنون العظمة) في المتنبي، واستدل عليه بإفراطه في الكبرياء وخروجه في ذلك عن المألوف. قال الأستاذ: (والذي يروَى عن تعاظم المتنبي كثير، ونحن لا نستكثره عليه، وإنما نستكثره منه لخروجه عن المألوف في زمنه؛ فقد اشترط على سيف الدولة الحمداني - ملك حلب - أول اتصاله به أنه إذا أنشده مديحه لا ينشده إلا وهو قاعد، وأنه لا يكلّف تقبيل الأرض بين يديه. ويعقب الرواة على ذلك بقولهم: (فنسب إلى الجنون). وإذا كان على هذا المثال مسلكه من الملوك والأمراء وهم ممدوحوه يقصدهم للنوال، فقد غُنِينا عن إطالة الكلام في تعاظمه على سائر الناس وتعرضه لعداواتهم وإعراضه عن شانئيه من رجال الدولة والمتأدبين وتعمده تجاهلهم).

وعندنا أن جنون العظمة لا بد أن يقترن بعقيدة كاذبة موهومة أو مبالغ فيها لغة التي تشبه الوهم والكذب. ولم تكن عقيدة المتنبي في شعره وأدبه من هذا القبيل؛ لأنه كان في الحق أشعر شعراء زمانه، وأغزرهم أدباً، وأقواهم خلقاً وطبعاً. والوجه هنا أن نفرض أن رجلاً سليماً جد السلامة كان في زمانه وكان له مثل فضله ونبوغه، وأصابه مثل ما أصابه من حساده، فهل تراه كان يعتقد في نفسه غير هذه العقيدة أو يختلف في مسلكه إلا بمقدار ما يختلف الأفراد المتعددون وإن تشابهوا في القدرة والخليقة؟ لا أظن ذلك ولا أجزم بنقيضه، وإذا كانت هناك حادثة في حياة المتنبي تُلقي عليه شبهة

---

(1) البلاغ في 6 فبراير سنة 1924.

(جنــون العظمة) Megalomania: فتلك في رأيــي هي الحادثة المروية عن سبــب وفاته، إذ يقولون إنــه مرّ بدير العاقول ونزل على أحد أصحابه، وكان صاحبه هذا قد علم بأن فاتكاً الأسدي يتربّص بالمتنبي لهجوه أخته، فاقترح عليــه أن يرسل معه بعض الفرسان يحرسونه فأبى واستكبر وقال: (والله لو أن مخصرتي هذه ملقاة على شاطئ الفرات وبنو أسد معطشون بخمس وقد نظروا إلى الماء يتفجر كبطون الحيات لما جسروا على الورود).

فــإن هذا الكلام أشبه بالجنون الــذي يأتي من فرط التعاظم، ولا سيما وهو كلام لا يُراد به فخر ذاهب في الهواء لا يقحم صاحبه في مخاطر الموت إن أخطــأ وإن أصاب، وليس ينفي الشبهــة عن المتنبي أنه لم يكن يُصَدِّق ما سمــع من نذير بالشر والغيلة، فإن الحيطة في هذا المقام لا تضير، وهي هنا أمــر لا بد أن يفكــر فيه العقل السليــم. ولكننا حريُــون ألا نعلق الحكم على طبيعة إنسان بحادث واحد قد يصح وقد تعوزه الصحة في روايته وتصويره.

أمــا ادعاء النبوة فهو في المتنبي خاصة لا يدل على (جنون العظمة)؛ لأنه اتخذه حيلة يتوسل بها إلى غرض، ولم يتخذه عقيدة ينخدع بها قبل أن يخدع بهــا سواه، وشأن هــذه الدعوى كشأن كل دعوى يصطنعهــا أصحاب اللبانات للتغريــر بالناس وهم أول المكذبين بما يفــترون، ومن طبيعة هذه الدعاوى أن تكون إلى التعاظم لا إلى التصاغر والتضاؤل، فيجوز أن يزعم صاحبها الغِنى والجاه كما يزعم النبوة والرسالة، وهو سليمُ العقل عالمٌ بغايته ومسعاه.

والأستــاذ طاهر الطناحــي يتناول هذا الجانب من طبــع المتنبي، فيرى أنــه فضيلة خلقية، ويقول إنك (حــين تتصفح حياة المتنبي وتدرس أخلاقه، وتستقــري هذه الكبرياء في شعره وفيما روي عنــه فيما كان بينه وبين سيف الدولــة وبينه وبين كافور أو عضد الدولة وغيره ممن اتصل بهم لا تجد أثراً

للكبريـاء الممقوتة التي تَحطُّ من قدر صاحبها وتلحقه بالمغرورين المتنفجين الذيـن يتعالون في غير علوٍّ ويفخرون بغير ما سبب للفخر، وإنما تجد عظمة أدبيـة واعتداداً بالنفس وصوناً لكرامة الأدب والأديب عن الصعلكة والمهانة في مجالس الملوك والأمراء؛ فقد عـرف المتنبي قيمة رسالته الفنية، وعرف ما للفن من مقام في حياة الجماعة؛ فربأ به عن أن يكون ذليلاً مهيناً، وأراد أن يفرض على الناس احترامه وتعظيمه).

والأولـى عندنـا أن تسمى هـذه الصفـة في المتنبي قوة طبعيـة أو نزعة مزاجيـة، ولا تسمى فضيلة خلقية؛ لأنهـا شيء لا يتعلق (بالضمير الخلقي) الـذي يناط به الفضل والنقص والإحسان والعيب. ولكنها قوة تكون فيه كما كانـت ولو لم توجد في الأرض مبادئ الأخـلاق وأحكام الضمائر، فهو يتكبّر كمـا يتكبر الأسـد، أو يشجع أو يختال، ولا حيلـة في نزعة من هذه النزعات (للضمـير الخلقي) وبواعث الفضائـل والرذائل كما يقسمها ويرتّبها علماء الأخلاق، ولو أن هذه القوة الطبعية قادته إلى الشر لما أقلع عنها ولا استطاع تبديلهـا. وليـس الماء الجارف يأبـى أن تحبسه في سـدوده بصاحب فضيلة خلقية أو موازنة بين الكمالات والعيوب، ولكنه هكذا اندفع لأنه هكذا كان.

***

واعتقـد الأستاذ الجارم أن التحدث عن الأسـرار والهمسات ضروري في التحدث عن كل شاعر حتى أبي الطيب المتنبي... فقال: (تقرأ المتنبي فتحسُّ أنه يخاطب كل نفس بأسرارها ويكشف لكل سريرة مطوي أخبارها، وكثيراً ما حدثنا عن خلجات كنا نحس بها ونسمع في النفس دبيبها، ولكنا كنا عاجزين عـن وصفها والتعبير عنها، وهي منا على طرف الثمـام، ومَنْ أخبر بهمسات النفوس من أبي الطيب؟ ومن هو أقدر منه على كشف جولات الخواطر؟).

وهـذا هو الخطأ الأصيل في فهم الشعر عند من يحسبون الهمس والسر والرقة واللطافة هي خير الشعر، وهي شرط لا بد منه في كل شعر فائق وكل شاعـر مفلـق. وما علم القـراء أن المتنبي شاعر همسـات وأسرار ولا خبايا نفوس وأفكار، ولكنه شاعر وقائع تتجسم أمام البصائر والأبصار، وشاعر طبائـع تتمثل في وضح النهار، وليس في كل ما قاله شيء تخفى شواهده على إنسـان يرى بعينـه ويلمس بيديه، ولكـن هكذا فهم الأستـاذ الجارم الشعر السـري، فوجـب أن يكون الشعـراء السراة على حد ما يفهـم، وكأنه حسب أنـه لـو أخلى المتنبي من الهمسات والأسرار لأعيـاه بعد ذلك أن يحسبه من الشعراء، فضلاً عن الشعراء الكبار!

ومن هنا أيضاً جاء استحسانه لقوله:

أتحسب بيض الهند أصلك أصلها
وأنـك منـهـا سـاء مـا تتـوهـم
إذا نحن سميناك خلنا سيوفنا
مـن الـتيـه في أغـمـادهـا تتبسم

وليسـ في هذا مـا يستحسن إلا لعب الألفاظ والعبـث بالصور الكواذب، فلـو كان شعـر المتنبي كله من قبيلـه لما صلح أن يكون من شعـراء الإنسانية الفحـول؛ لأن كلامه إذن لا يقبل الترجمة إلى جميع الألسنة واللغات ولا إلى جميع الطبائع والعقول.

في ذكرى المتنبي (1)

(2)

قيـل إن ملكاً من ملوك إنكلترا سأل بعضـ العلماء الطبيعيين على سبيل الامتحـان: لماذا لا يتغـير وزن السطل المملوء بالمـاء إذا وضعت فيه سمكة؟ فقـام عالم أو عالمان يلتمسان العلل وينتحـلان الأسباب، ثم قام زميل لهما هـو أحجـى بفطنة العالم وفضله، فقـال: ومن أين لنـا أن الوزن لا يتغير في الحالتـين؟ علينا أن نزن السطـل بالماء الصرف أولاً ثم نـزن السطل بالماء وفيه السمكة ثم نبدأ بعد ذلك بالتعليل إن كانت بنا حاجة إلى التعليل.

والأستـاذ أحمد أمـين -وهو عالم صحيح التفكير حسـن التقدير- قد أدى في مقالـه بالهـلال مهمة ذلك العـالم الإنجليزي حين أبـى أن يتلقى الفروض والمزاعـم بلا تشـكك أو مراجعة، وذلك حيث قال: (... يخطئ من ظنّ أن أبا الطيـب عمد إلى ما أُثِرَ من الحكم عن أفلاطون وأرسطو وأبيقور وأمثالهم من فلاسفـة اليونـان، فأخذها ونظمها، ولم يكن له في ذلك إلا أن حول النثر شعراً كما رأى ذلك من تتبعوا سرقات المتنبي وأفرطوا في اتهامه، فأخذوا يبحثون في كل حكمـة نطق بهـا ويردونها إلى قائلها من هـؤلاء الفلاسفة. فلسنا نرى هذا الـرأي؛ فـإن كان قد وصل إلـى أبي الطيب قليل من حكـم اليونان ونظمها فإن أكـثر حكمه منبعها نفسه وتجاربه وإلهامـه لا الفلسفة اليونانية وحكمها؛ ذلك لأن الحِكَـم ليست وقفـاً على الفلاسفة ولا على من تبحّروا في العلوم والمعارف، إنما هي قدر مشاع بين الناس يستطيعها العامة كما يستطيعها الخاصة...).

وهـذا كلامٌ حسـنٌ حق؛ إذ من أيـن لنا (أولاً) أن الحِكَـم المزعومة هي

---

(1) البلاغ في 6 فبراير سنة 1924.

مـن كلام أرسطو وأفلاطـون وأبيقور؟ في أي كتاب مـن كتبهم وردت؟ وعن أي روايـة مـن رواياتهـم نقلت؟ أما أنا فـلا أذكر أنني رأيـت شيئاً من هذه الحكـم فيما قـرأت لأرسطـو وأفلاطون، ولا فيمـا ترجمه العـرب من آثار هذين الحكيمين، وبعيد أن تكون تلك الحكم جميعها فيما اندثر من الأسفار اليونانيـة واستأثـر بالاطـلاع عليه أولئك الناقـدون الموكلـون بسرقات أبي الطيب. فأغلب الظن أنها حكم مخترعة أو محرفة وأن الناقدين جروا فيها على عادة بعض الرواة مـن العرب حين يقولون: (سُئل الهندي ما البلاغة؟ فقـال ... وسئـل الفارسي ما محاسن الأخلاق؟ فقـال ... وسئل اليوناني مـا الجمال؟ فقـال ...) إلى أمثال هذه المقولات التـي لا تدري كيف تمثلت فيها الأقوام والأجناس وفي أي مؤتمر اجتمع هؤلاء النواب الفلسفيون الذين ينوب كل منهم عن قوم ويحق لكل منهم أن ينطق بلسان زملائه أجمعين.

ولا شـك في أن المتنبـي قد سمـع بأرسطو وأَلَمّ بطرف مـن مذهبه وكلامه وأحاديث المشغولين بفلسفته ودخل بعض ذلك في تفكيره ونظمه، ولكن المقابلة بين أبياته وحكم أرسطو إنما يرجع فيها إلى الأصول اليونانية أو إلى المترجمات العربيـة قبل عصره، ولا نعلم أن أحداً راجع أبياته هذه المراجعة، ولا أن حكمة من حكمه تستعصي عليه لو لم يعرف أرسطو ولم ينظر في شيء من كلامه.

ولنا ملاحظة على مقال الأستاذ أمين تبدأ من العنوان وتنتهي بالختام؛ فعنوان مقاله: (فلسفة أبي الطيب، هل كان المتنبي فيلسوفاً؟) وختام مقاله كلمة يقول فيها: (هذه ناحية من نواحي فلسفة المتنبي هي فلسفة القوة، وقد كان له في فلسفته نواحٍ أخرى كثيرة لم يتّسِع لها هذا المقال).

فلماذا لم يتّسِع المقال؟ لقد كتب الأستاذ في أشياء شتّى إلا فلسفة المتنبي فلـم يكتب عنهـا إلا أقل ما في المقال، كأنما (حبكة المقـال) لم تبلغ بعدُ من

دُربة الأستاذ الفاضل ما قد بلغته البحوث الطوال.

***

وقـرأت (نفسيّـة المتنبي) للأستـاذ محمد مظهر سعيد؛ فـإذا مقاله لا يشـذ عن القاعدة التي عرفتها في كثير من كتابات (النفسيين) عن عظماء الرجـال. فالقاعدة في هذه الكتابـات أنها تخرج لنا أولئـك العظماء أناساً بغـير نفوس تحتاج إلى تحليل! وقلما عـرف الناس (نفس) شاعر أو فاتح أو سائس أو مفكر من كتابات هؤلاء النفسيين!

وقـد لوحظت علـى هذا المقال قلـة التمحيص حتـى فيما لا يتعـذّر فيه التمحيـص؛ فالأستـاذ يقول: (ثم هو في حضرة أبـي شجاع فاتك يتوب عن مدح كافور ويقرع نفسه عليه:

وشـعـر مـدحـت بـه الـكـركـد
نَّ بـين الـقـريـض وبـين الـرقـى
فـمـا كـان ذلـك مـدحـاً لـه
ولـكـنـه كـان هـجـو الـورى

كأنـه كان في الواقـع لا يمدح كافوراً ليسـرّه وإنما ليغيـظ الناس الذين ملّكُوا عليهم عبداً، وهذا تحايل غريب!).

والمتنبي لم ينظم تلك القصيدة في مدح أبي شجاع، ولا كان حين أنشدها في حضرتـه ولا في بلـد من بلاد هـذا المصر كله، ولكنـه كان قد برح مصر وقصد إلى الكوفة، وقال منها:

وردنـا الـرهـيـمـة في جـوزه
وبـاقـيـه أكـثر ممـا مـضـى

فلما أنخنا ركزنا الرما
ح بين مكارمنا والعلى

وإذا كان عجيباً من عالم أن يفوته التحقيق على سهولته -وهو هنا لا يكلفه أكثر من فتح ديوان الرجَلً الذي يكتب عنه -فأعجب منه أن يكون هذا العالم نفسياً ويفهم المتنبي وبواعثه النفسية كما فهم من قوله:

فما كان ذلك مدحاً له
ولكنه كان هجو الورى

وقد فهم من هذا البيت أنه كان يمدح كافوراً ليغيظ الناس أو أنه يزعم أنه كان يمدحه لهذا الغرض، مع أن الغرض مذكور في البيت السابق؛ وهو أنه كان يمدحه (ليرقيه) أو ليسحره ويستزله عن عطائه، وإن هذا المدح -بغير قصد من المادح- هو هجاء للناس؛ إذ يكون كافور منهم بمقام الراجحين والعلية المفضلين، فماذا يكون مَن هو دون هذا المقام؟

***

ولست أزعم أن المتنبي واضح في جميع قصائده وأبياته، ولا أقدح فيه للغموض؛ لأنني لا أنتظر من الشاعر أن يُفهم كلّ قارئ أو سامع، ولا أن يفهم من يفهمهم من القراء والسامعين في جميع الأحوال. فمن الأبيات ما تلمحه لحظة فيتضح أمامك كما يتضح المنظر جرى عليه البرق في الظلام، ثم تقرؤه مرة أخرى وأنت في حال غير تلك الحال فإذا هو مغلق أو ضعيف البيان؛ فلا ينبغي أن نلتفت إلى القول الغامض وحده، وإنما ينبغي أن نلتفت إلى السامع ما شأنه من الفطنة والشعور، وإلى حالته حين يسمع ما شأنها من التفتح والتهيُّؤ والاستعداد.

على أنني أعجب كيف يستغمض الشرّاح بيتاً كهذا البيت:

جـلـلاً كـمـا بـي فـلـيَـكُ الـتَّـبـريـحُ
أغِـــذَاءُ ذا الـرّشـأ الأغَــنِّ الشّـيحُ

وهو واضـح قريب المعنى لقراء العربية علـى الخصوص. ولكن الأستاذ نقولا الحداد يقول: (ولهذا اختلف الشرّاح في تفسير كثير من الأبيات لشدة إبهامهـا وغموضها، وربما فسـروا بيتاً بمعنًى لم يُـرده المتنبي، وبقي مراده الذي جال في ذهنه دفيناً معه ومن أمثلة ذلك قوله:

جـلـلاً كـمـا بـي فـلـيَـكُ الـتَّـبـريـحُ
أغِـــذَاءُ ذا الـرّشـأ الأغَــنِّ الشّـيحُ

ومعنــى الشطر الأول واضحٌ، وهو فليكـن التبريح في الهوى جللاً كما هو بـي. وتقديم المتأخـر فيه من ضروب البلاغة، ولكـن الشطر الثاني يقتضي تأويلـه إعنات فكـر؛ لأن الصلة اللفظية بينه وبين الصـدر مفقودة بتاتاً إذا صـحّ تفسيره هكـذا: أتظنـون أن غذاء هـذا الرّشأ كعادة مثلـه من غزلان الصحـراء؟ لا، بل إن غـذاءه من قلب عاشقه، ولهـذا ينحله ويمرضه، فهو الـذي يورثه هذا التبريح. فانظر كم اقتضت الصلة بين الصدر والعجز من الكلام الذي استقام به المعنى وليس في البيت منه شيء).

وعندنـا أن هذا الكلام الطويل قـد اقتضاه الشرح، وليس من الضروري أن يقتضيه الفهم أو يقتضي ما هو أقل منه.

فإن الرجل الذي يصيح بنا (النار) لا يقول لنا قوموا وأسرعوا إلى الماء، وأنقذوا حياة من ينذرهم الحريق بالموت، ولكننا مع ذلك نفهم ما يريد وإن أطلنا في تفصيل معنى هذه الكلمة الواحدة عند الشرح والتفسير.

وكذلك نفهـم أن الظبي الذي يأكل الشيح لا يبرح[1] بالقلوب أو بالنفوس ذلـك التبريح، وإنما يبرح بها ظبي له غذاء آخر، وماذا عسى أن يكون ذلك الغذاء الآخر غير القلوب والنفوس ما دام الحديث حديث هوى وغرام؟ أفي المعنـى احتمال لغير هـذا التفسير؟ وهل كان يحسـن بالمتنبي أن يفصله في أربعة أبيات، أو القراء هم الذين يحسن بهم أن يفهموا مراده الذي لا مُرادَ غيره؟

إن أبـا تمّام قـد أجمل القول الفصل في مشكلـة الغموض أحسن إجمال حين سئل: لم لا تقول ما يفهم؟ فقال: ولم لا تفهم ما يقال؟

إن الأمريـن لازمـان على حدٍّ سـواء، وربما كان الفهـم في القارئ ألزم وأولى من التفصيل والإسهاب في كلام الشعراء.

---

(1) البرح: الشدة والشر، ومنه برّح به الأمر تبريحاً. وتباريح الشوق: توهجه، برجاء الحمى وغيرها: شدة الأذى.

يظل الأديب عباس محمود العقاد مدرسة غنية في علمه وأدبه وثقافته. وما برحت المجلة العربية تقتفي أثر ما كتبه، لتثري قراءها بكنوز علمه وثقافته. وقد احتفت المجلة العربية بأدبه في أعداد سابقة، بنشر عدد خاص في الذكرى الخمسين لوفاته ومع العدد كتاب (اللغة الشاعرة) للعقاد، كما أعادت نشر كتابه (عبقرية محمد).

واليوم نضع أمام قرائنا مقالات جمعت للأديب العقاد حول الشاعر المتنبي، وهو الآخر رمز شعري، كُتب حوله الكثير. وتميز العقاد في سبر أغوار ما لم يقله الآخرون عن المتنبي، بحس العقاد الفني، وغوصه في أعماق أدب المتنبي وسيرة حياته.